

قصة مدينتين

تأليف

تشارلز ديكنز

ترجمة

محمد بدران

الكتاب : قصة مدينتين

الكاتب : تشارلز ديكنز

ترجمة : مُجَّد بدران

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣



E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ديكنز ، تشارلز

قصة مدينتين / تشارلز ديكنز، ترجمة : مُجَّد بدران

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

٢٣٨ ص، ١٨ سم.

التقييم الدولي: ٨ - ٩٦٦ - ٤٤٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع : ٨٩٣٧ / ٢٠١٩

قصة مدينتين

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون» 

أشخاص الرواية

- سدني كارتن: محام في لندن وهو رجل قدير ولكنه لا يعمل.
مساعد مستر استريفر.
روجر كلابي: جاسوس في أولد بيلي.
جري كرنشر: رسول في خدمة مصرف تلسن.
مسيو إرنست دفارج: صاحب حانة في سانت أنطوان وزعيم الثوار في ذلك الحى.
مسيو جابل: وكيل المركز سانت إفريمند.
جاسبرد: قاتل.
جاك ١
جاك ٢
جاك ٣
جاك ٤: اسم تسمى به دفارج.
جاك ٥: زميل من زملاء دفارج، كان معبد طرق ثم أصبح قاطع خشب.
مستر جارفيس لري: كاتب في مصرف تلسن وصديق لآل مانت
الدكتور مانت: طبيب من أطباء باريس، سجن في الباستيل سنين كثيرة
سليمان برس أو جون جاسوس ومخبر سري وشقيق الآنسة برس.
بارساد:

المركز سانت إفريمند: نبيل متغطرس وعم تشارلس سانت إفريمند.
تشارلس سانت إفر: مهاجر فرنسي اتخذ لنفسه اسم تشارلس دارني.
يمند:
مستتر استريفير: محام في لندن.
مدام دفارج: زوجة مسيو دفارج وزعيمة النسوة الثائرات في
حي سانت أنطوان.
لوسي مانت: ابنة الدكتور مانت وزوجة تشارلس سانت
إفريمند.
الآنسة برس: خادمة لوسي مانت.
لوسي سانت إفريمند: ابنة تشارلس سانت إفريمند.
الانتقام (فجنس): من زعيمات النساء الثائرات في حي سانت
أنطوان.

الفصل الأول

حانة مسيو دفارج

كان حي سانت أنطوان من أفقر أحياء باريس، وكان لأطفال هذا الحي وجوه وأصوات حزينة لا تفترق عن وجوه الشيوخ وأصواتهم، وكأن الجوع قد ارتسم على وجه كل رجل فيه وكل امرأة، ولم يكن في حوانيته إلا أردأ قطع اللحم وأخشن أنواع الخبز؛ أما الشوارع فقد خلت من كل هو زاه براق، اللهم إلا الحوانيت التي كانت تبيع العدد والسلاح، فقد كانت هذه تحوي أحد السكاكين وأفتك البنادق، وكان هذه الأسلحة البراقة كانت تنتظر الوقت الذي تخرج فيه لتعمل عملها الرهيب.

وكان برميل كبير من براميل النبيذ قد سقط وتحطم في شارع سانت أنطوان، وجرى النبيذ الأحمر على الحجارة الخشنة، وتجمعت فيما بين هذه الحجارة من تجاويف وشقوق برك صغيرة من هذا النبيذ

وسرعان ما ترك جميع من كانوا بالقرب من هذا المكان أعمالهم أيّاً كان نوعها، وجرروا إلى تلك البقعة ليحصلوا على شيء من هذا النبيذ قبل أن تمتصه الأرض، فمنهم من ركعوا وحاولوا أن يجمعه في كفوفهم، ولكن معظمه كان يتسرب من بين أصابعهم، ومنهم من جاءوا بأقداح حاولوا

ملأها منه، ومنهم من غمسوا في النبيذ خرقاً دسوها بعدئذ في أفواههم، وانطلق في هذ الشارع الذي يخيم عليه الفقر والبؤس صوت السرور والضحك وقتاً ما، ولكن النبيذ لم يلبث إلا قليلاً حتى زال، وانقطع لضحك، وعاد الناس البائسون إلى ما كانوا يعملون من قبل.

وجاء رجل طويل، فغمس إصبعه في الطين الذي أحمر لونه من النبيذ وكتب على الجدار كلمة من حروف "دماء".

ومعنى هذه الكلمة: أن سيأتي الوقت الذي تجري فيه الدماء، في شوارع سانت أنطوان، وتخضب حجارها باللون الأحمر.

وكان برميل النبيذ في طريقه إلى الحانة التي في ركن الشارع، وكان صاحبها "مسيو دفارج" واقفاً خارج بابها، وكان رجلاً قوي البنية، في نحو الثلاثين من عمره، عاري الرأس، له وجه يدل على طيب قلبه بصفة عامة، ولكنه تبدو عليه دلائل العزيمة القوية، وليس فيه شيء قط من سمات الضعف أياً كان نوعه، فكان هو الرجل الذي يخشاه من يعاديه.

ووقف "مسيو دفارج" ينظر بعض الوقت إلى النزاع القائم حول النبيذ، وقال في نفسه: "ليس هذا من شأني، ومادام هذا البرميل قد كسر، فإن عليهم أن يأتوني بغيره، ثم وقعت عينه على الرجل الذي كتب الكلمة الرهيبة على الجدار، فناداه، وقال له: "قل لي يا جاسبرد هل جننت؟، وإلا فلما نكتب في الشارع العام؟ أليس ثمة أماكن خير من هذا الشارع تكتب فيها أمثال هذه الكلمات؟".

وكانت مدام دفارج تجلس في الحانوت حين عاد إليه زوجها، وكانت امرأة في نحو سنه، ذات عين يقظة دقيقة الملاحظة، ووجه قوي المعارف وطبع كثير الهدوء، فلما دخل زوجها سعلت سعلة خفيفة، واتجهت بعينيهما إلى إحدى النواحي كأنها تريد أن تلفت نظره إلى عدد من الناس دخلوا في الحانة.

ولذلك أخذ صاحب الحانة يجيل بصره فيها حتى استقرت عينه على رجل كبير السن وفتاة جالسين في أحد أركانها، وكان في الحانة أناس غير هذين، ولكنها لم يكن فيها من الغرباء غيرهما، ولما مر بهما لاحظ أن الشيخ لفت إليه نظر رفيقته الشابة، كأنه يقول لها: "هذا هو رجلنا".

وقال دفارج في نفسه: "ترى ماذا يعمل هذان الشخصان في ذلك المكان، إني لا أعرفهما".

وتظاهر بأنه لم يلاحظ الغريبين، وانطلق يتحدث إلى ثلاثة رجال كانوا يجتسون الخمر أمام نضد تقديمه.

وقال أحد هؤلاء إلى مسو دفارج: "كيف تسير الأمور يا جاك؟ هل شرب الناس جميع النبيذ الذي كان في البرميل المكسور؟".

فأجابه دفارج بقوله: "لقد شربوا كل نقطة منه".

وقال الرجل الثاني: "قلما يذوق هؤلاء البائسون طعم النبيذ أو طعم شيء غيره، ما عدا الخبز الأسود والموت، ألس هذا صحيحاً يا جاك؟".

وأجابه مسيو دفارج بقوله: "هو كذلك يا جاك"، ووضع ثالث الرجال قدحه، وقال:

"آه! إنك لا تجد في أفواه هؤلاء البائسين وأمثالهم إلا المر، إنهم يحيون حياة شاقة، ألسنت محمقاً في ذلك يا جاك؟".

فأجابه مسيو دفارج: "إنك محق يا جاك".

واستلقت نظره حركة قامت بها مدام دفارج، فقال: "سادتي، إن الحجرة التي ترغبون في مشاهدتها في أعلى الدرج، فاذهبوا إلى الفناء، وقد كان أحدكم في ذلك المكان من قبل، وسيرشد زميليه إلى الطريق".

وأدوا ثمن ما شربوا من النبيذ وخرجوا، وحينئذ تقدم أكبرهم إلى دفارج واستأذنه في أن يتحدث إليه، وكان حديثهما قصيراً، فلم يكذ مسيو دفارج يسمع أول كلمة حتى ظهرت على وجهه دلائل الاهتمام الشديد، وبعد دقيقة واحدة أوماً برأسه وخرج، وحينئذ أشار الرجل إلى الفتاة، وخرجا هما أيضاً.

وواصلت مدام دفارج تطريزها ولم تلق بالها إلى ما حدث.

وانضم مستر جارفس لري (الشيخ) والأنسة لوسي مانت إلى دفارج في الفناء الذي وجه إليه الثلاثة الرجال الآخرين من وقت قصير، وفي هذا الفناء فعل دفارج فعلة عجيبة، فقد ركع على إحدى ركبتيه، ولثم بشفتيه يد الفتاة.

لقد كان دفارج في وقت ما خادماً للدكتور مانت والد لوسي مانت، ولما توفيت أم لوسي اختفى أبوها الطبيب، ولم يعرف أحد ما حدث له، وكانت أمواله مودعة في مصرف تلسين أحد المصارف الإنجليزية، ونقلت الطفلة لوسي إلى إنجلترا، وعهد إلى مستر جارفيس لري، وهو أحد موظفي مصرف تلسن، وصديق قديم من أصدقاء أبيها بالعناية بأموالها والسهر على تعليمها.

وطلب مستر لري إلى سيدة إنجليزية تدعى الآنسة برس أن تقوم بتربية الطفلة، ومن ذلك الوقت أضحت الآنسة برس، وكأنها أم للوسي مانت، وكان يسرها أن تضحى بجياتها من أجل هذه الطفلة.

وشبت لوسي وأصبحت في الوقت الذي تتحدث عنه فتاة، وسمعت أخباراً عجيبة جاءت على أثرها إلى باريس مع مستر لري، وكان مضمون هذه الأخبار أن الدكتور مانت (الذي ظن الناس جميعاً أنه مات) لا يزال على قيد الحياة، وأنه كان قبل ذلك سجيناً في الباستيل -سجن باريس العظيم- أما الآن فقد أطلق سراحه وأصبح يعني به دفارج خادمه القديم.

وقام دفارج على قدميه وقد تغيرت ملامح وجهه تغيراً عجبياً، وزالت عنه كل فكاهته، وحلت محلها نظرة غضب وكره -كره لأولئك الذين أساءوا إلى إنسان يحبه.

وقال دفارج: "إن السلم عال فلنصعد على مهل"، وهمس مستر لري قائلاً: "هل الدكتور مانت وحده؟".

"بطبيعة الحال؛ فقد اعتاد الوحدة زمناً طويلاً، حتى غدا لا يطيق وجود غيره معه".

"وهل تغير كثيراً عما كان؟".

"تغير! إنك لن تعرفه متى رأيته".

ولما قربوا من أعلى السلم أخرج دفارج من جيبه مفتاحاً.

"وهل يظل باب حجرته مغلقاً؟".

"أظن أن هذا أسلم له".

"ولم؟".

"لم! لأنه عاش محبوساً زمناً طويلاً، وأصبح يخاف إذا ترك باب حجرته مفتوحاً"

فصاح مستر لري: "أذلك أمر مستطاع؟"

فأجاب دفارج، والحقه باد عليه: "إنه مستطاع، إن مثل هذه الأمور مستطاعة في هذا العالم الجميل، وهي ليست مستطاعة فحسب، بل هي ترتكب فعلاً في كل يوم، تلك هي حال فرنسا".

ودار هذا الحديث همساً فلم يصل شيء منه إلى أذني الفتاة، فلما وصلوا إلى رأس السلم ارتعدت فرائصها وبدت على وجهها علامات الاضطراب الشديد والفرع، فأخذ مستر لري يتحدث إليها ليث الشجاعة في قلبها، وقال لها: "تشجعي! فسينقضي أسوأ ما في الأمر بعد دقيقة واحدة، ولا تفكري إلا في السعادة التي ستزججها إليه".

واقتربوا آخر الأمر من رأس السلم حتى إذا وصلوا إلى ثنية في الدرج وجدوا فجأة ثلاثة رجال ينظرون إلى إحدى الحجر من خلال شقوق في بابها، فلما سمع هؤلاء وقع أقدام مقبلة التفتوا نحوها وقاموا واقفين، وهؤلاء هم الثلاثة الرجال الذين كانوا يجتسون الخمر في الحانة.

فناداهم دفارج قائلاً: "تركونا أيها الأولاد الطيبون فإن لدينا عملاً في هذا المكان".

ونزل الثلاثة الرجال في هدوء.

وغضب من ذلك مستر لري، وهمس في أذن دفارج قائلاً: "أتجعل من مسيو مانت معرضاً تعرضه على الناس؟".

"إني أعرضه على عدد قليل من الناس، وهم أولئك الذين قد ينفعهم نظرم إليهم، وكلهم رجال يسمون باسمي: جاك، إنك إنجليزي لا تفهم حقيقة أمرنا، فانتظر هنا قليلاً من فضلك".

وأحدث دفارج صريراً في الباب بمفتاحه كأنه يريد أن ينبه من في داخله، ثم أدخل المفتاح في القفل وأداره في ببطء فانفتح الباب ونظر في الحجرة، وقال بضغ كلمات وأجابه صوت خافت، ثم التفت وراءه، وأشار إلى من كانوا معه بالدخول، وطوق مستر لري وسط الفتاة بذراعه وأمسك بها وناداهما قائلاً: "ادخلي، ادخلي"

وقال وهي ترتجف: "إني أخاف".

"أي شيء تخافين؟"

"أخافه، أخاف أبي"

"ووضع ذراعها المرتجفة حول عنقه، ورفعها قليلاً، وأسرع بها إلى الحجرة.

وكان في الحجرة عمل يعمل، كان فيها رجل أشيب الشعر، جالس على دكة طويلة ومنحني إلى الأمام، متجه بظهره نحو النافذة ومنهمك في صنع أحذية.

الفصل الثاني

صانع الأحذية

قال مسيو دفارج، وهو يطل على الرأس الأبيض المنكب على العمل: "طاب يومك"

وارتفع الرأس الأبيض هنيهة، وأجاب صوت خافت: "طاب يومك"
"أراك لا تزال مكباً على العمل"

وكان ضعف صوت الرجل مما يبعث في القلب أشد الحسرة! فقد بدا أنه لم يكن نتيجة الضعف الجثماني فحسب، بل أنه كان أيضاً من آثار عدم التعود على الكلام، وكان الشيخ يلبس أسمالات بالية، وكان ذا لحية بيضاء، ووجه غائر، وعينين شديديتي اللمعان، تبدوان واسعتين اتساعاً غير طبيعي.

ولم يلتفت الرجل إلى الزائرين، بل لم يكذب يبدو عليه أنه أحس بوجودهم، واتضح أن عقله قد تأثر بطول سجنه.

وتقدم مستر لري وهو صامت وترك لوسي بجوار الباب.

وناداه دفارج قائلاً: "انتبه إن عندك زائراً فأطلعه على الحذاء الذي تصنعه، وقل له أي صنف من الأحذية هو؟"

وأجاب الصوت الخافت: "إنه حذاء سيده إنه حذاء فتاة، وهو من الطراز الحديث، ولكني لم أر في حياتي حذاء مثله، وكل الذي رأيته إنما هو رسم له"، ونظر إلى الحذاء بشيء قليل من الإعجاب، الإعجاب بصنع يدهز

وسأله مستر لري: "وما اسمك؟"

"اسمي رقم مائة وخمسة في البرج الشمالي"

"ماذا تقول؟ أهذا كل شيء؟"

"مائة وخمسة في البرج الشمالي"

وسأله مستر لري "ولكنك لست حذاء محترفاً أليس كذلك؟"

وصمت الشيخ قليلاً ثم قال: "لا؛ لست حذاء محترفاً؛ ولكني تعلمت هذه الصناعة في السجن، فقد أذنوا لي بتعلمها"

ونظر مستر لري إلى وجهه بامعان وقال له:

"ألا تذكرني يا دكتور مانت؟"

وسقط الحذاء على الأرض، ونظر الشيخ في حيرة إلى سائله:

"ألا تذكر يا دكتور مانت مسيو دفارج الواقف في هذا المكان؟ ألا تذكر جارفس لري المصر في القديم؟"

وتنقلت عينا السجين الذي دام سجنه سنين طوالاً من شخص إلى شخص، وخيل إلى الواقفين أن سيماء الذكاء قد لاحت على وجهه، لكنها ما لبثت أن اختفت وخيم الظلام على عقله، فالتقط الحذاء وواصل عمله. وتقدمت لوسي في بطء شديد نحو منضدة صانع الأحذية، ووقفت إلى جانبه وهو مكب على عمله.

فسقطت السكين من يده، ثم انحنى ليلتقطها فوقعت عيناه على ثيابها، فحدق فيها تحديق الخائف المرتاع، وتنفس تنفساً عميقاً، وحشى الواقفون العاقبة، فقد كانت السكين بيده والفتاة جد قريبة منه، ولكنها هي لم تبد عليها دلائل الخوف.

"من أنت؟ أنت ابنة السجان؟"

فقالته وهي تنهده "لا"

"من أنت؟"

ولم تستطع النطق، بل جلست بجواره على الدكة فابتعد عنها، ولكنها وضعت يدها على ذراعه، فألقى السكين من يده، وجلس ينظر إليها.

وكان شعرها الذهبي ملقى في حلقات على كتفيها، فمد يده في خشية، يريد أن يلمسه، ثم تنهد تنهداً عميقاً وواصل عمله.

ثم انقطع الشيخ عن العمل مرة أخرى، ومس بيده شعر لوسي من جديد ونظر إليه بإمعان.

وقال: "إنه هو نفسه؟ ولكن كيف يكون هذا؟"

ومد يده إلى عنقه وخلع منه خيطاً مسوداً ربطت بطرفه خرقة صغيرة مطوية، وفتح هذه الخرقة بعناية على ركبته، وكان بها كمية صغيرة من الشعر - لا تزيد على بضع شعرات ذهبية كان قد لفها من زمن جد بعيد على إحدى أصابع يده.

ثم أمسك بيده شعرها مرة أخرى، وتفرس فيه، وقال:

"إنه هو بعينه، ولكن كيف يكون هذا؟ فقد أسندت رأسها على كتفي في الليلة التي استدعيت فيها إلى الخارج، ولما جاءوا بي إلى البرج الشمالي وجدت هذه الشعرات على سترتي".

وفاجأها بالتفاته مروعة لشدة مفاجأتها، ولكنها ظلت جالسة في هدوء تام، ولما خف دفارج ومستر لري لمساعدتها لم تزد على أن قالت لهما: "أرجوكم يا سيدي ألا تقتربا منا، وألا تتكلما أو تتحركا".

وصاح الشيخ: "لمن هذا الصوت؟ وما اسمك؟"

"أي سيدي ستسمع باسمي في وقت آخر، وستعرف من كانت أمي، ومن هو أبي، ولكني لا أستطيع أن أخبرك بذلك الآن، ولا أن أخبرك به في هذا المكان، وكل الذي أستطيع أن أبوح لك به هو أنني أحبك، وأني أرجوك أن تقبلني وأن تدعو لي بالخير".

وطوقت عنقها بذراعها، وأسندت رأسه على صدرها كأنه طفل.

"الحمد لله الذي أذهب عنك حزنك الطويل، فسنگادر هذا المكان إلى إنجلترا لتنعم فيها بالسلامة وبالراحة، الراحة! الراحة، فاحمد الله الذي أخرجك آخر الأمر من هذا العذاب الشديد إلى حيث تنعم بالسلم".

وظلت ذراعها حول عنقه زمناً طويلاً، ثم تسلل منها في سكون وهدوء إلى أرض الحجر، وأعقب هذه العاصفة سكون شديد، ونام الشيخ كما ينام الأطفال.

وانحنى مستر لري على الرجل النائم وقال: "يجب أن نخرج به الآن على الفور".

فأجابته لوسي: "ولكن أفاذر هو على تحمل الرحلة؟"

"إنه أقدر على تحملها منه على البقاء في هذه المدينة التي تروعه أشد الارتياح".

وقال دفارج: "هذا حق، وخير لمسيو مانت أن يكون في خارج فرنسا لأسباب كثيرة، فهل أستأجر عربية وجياداً".

فأجابه مستر لري: "تلك أعمال تجارية، وإذا كان ثمة أعمال تجارية فأنا الكفيل بإنجازها".

فقالت له الآنسة مانت: "أرجوكما إذن أن تتركنا في هذا المكان، فأنتما تريان مقدار ما أصاب من الهدوء، أغلقا الباب حين تخرجان واتركنا منفردين، ولا تخافا فهو آمن معي وأنا آمنة معه".

وخرج الرجلان ليعدا العدة للرحيل، فلما خرجا جلست الفتاة ترقب والدها، واشتد الظلام وزادت شدته، ووقد هادئاً حتى نفذ شعاع من الضوء من شقوق الباب إيذاناً بأن وقت الرحيل قد حان.

وأكل الشيخ وشرب ما جاءوا إليه به ليأكله ويشربه، شأن الرجل الذي طالما تعود إطاعة ما يؤمر به، وارتدى من فوره الملابس التي جاءوه بها وخرج معهم.

ووضعت لوسي ذراعها تحت ذراعها، وأمسك هو يدها بكلتا يديه، وظل ممسكاً بها، وبدتاً ينزلان على الدرج.

ولم يكن حول الحانة كثيرون من الناس يشهدون رحيله، ولم يكن يرى في المكان إلا إنسان واحد هو مدام دفارج، وكانت متكئة على عمود الباب تطرز، ولا يبدو عليها أنها تلاحظ شيئاً.

الفصل الثالث

المحاكمة

كان مصرف تلسن مكاناً من الطراز القديم حتى في عام ١٧٨٠، فقد كان بناء جد صغير، حالك الظلام، قبيح المنظر إلى حد كبير، ولكن أصحابه كانوا يفخرون بصغره وظلامه وقبح منظره، ظناً منهم أنه لو كان أحسن منظراً مما هو لأصبح أقل احتراماً في أعين الناس، ولم يكن يرى بين جدران المهيبة إلا رجال طاعنون في السن يقومون بالأعمال فيه.

وكان الناس يعتقدون أنه إذا انضم شاب إلى رجال المصرف أخفاه هؤلاء الرجال حتى يبلغ من الكبر درجة يصلح فيها للظهور أمام الناس.

وأرسل كاتب من أكبر كتبة المصرف سناً في صباح يوم من أيام شهر مارس يستدعي جري كرنشر الساعي الذي اعتاد أن يقضي وقته جالساً بجوار الباب من خارجه.

وسأله الكاتب العجوز: "أتعرف المحكمة المسماة أولد بيلي؟"

فأجابه جري وهو قلق: "نعم ... نعم يا سيدي؟"

"وهل تعرف مستر لري؟"

"أعرفه خيراً مما أعرف أولد بيلي يا سيدي"

"حسن جداً، اذهب إلى بواب المحكمة وأطلععه على هذه المذكرة المرسلة إلى مستر لري؛ فإذا اطلع عليها فسيسمح لك بالدخول، فإذا دخلت فاعرض نفسك على مستر لري وانتظر حتى يطلبك".

وأخذ جري الرسالة، وانحنى احتراماً للكاتب، وانطلق ذاهباً إلى المحكمة فلما اقترب منها كان عليه أن يشق طريقه بين جماعة من الناس القدرين، قد جذبتهم إلى ذلك المكان المحاكمة المرتقبة، وأملهم في أن يمتنعوا عيونهم برؤية المتهم، وأقيم الحراس على الأبواب جميعها، ولكن أحدها فتح ليدخل منه جري حين أظهر الخطاب الذي كان معه.

وسأل جري رجلاً بالقرب منه: "ما هي القضية التالية؟"

"قضية تشارلس دارني - المتهم بمساعدة أعداء الملك".

وشاهد مستر كرنشر البواب يذهب إلى مستر لري يجلس بين المحامين حول منضدة في المحكمة، وكان مستر استريفير واحداً من هؤلاء المحامين، وهو الذي سيتولى الدفاع عن مستر دارني، وكانت بين يديه طائفة كبيرة من الأوراق، وكان يجلس أمامه تقريباً رجل آخر خيل إلى من حوله أنه يركز التفاته في سقف الحجرة، ولما رأى مستر لري كرنشر أوماً إليه برأسه في سكون.

وقطع دخول القاضي حديث الناس كله، ثم جيء بالسجين، وحاول كل إنسان أن ينظر إليه -إلا رجلاً واحداً وهو الرجل المتهاون في ملبسه والذي كان ينظر إلى السقف بعينيه واسمه سدني كارتن.

وكان السجين شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، يبدو أنه سيد مهذب وكان هادئاً كل الهدوء.

وانحنى بأدب إلى القاضي.

وساد المحكمة السكون، وكان تشارلس دارني قد أعلن بالأمس أنه غير مذنب، ولكنه كان متهماً بالتجسس، وبمساعدة لويس ملك فرنسا في حروبه مع ملك إنجلترا، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه كان ينتقل بين إنجلترا وفرنسا، لينقل للفرنسيين أخبار الجيوش التي كان ملكنا يعدها ليرسلها إلى كندا وأمريكا الشمالية.

وأنصت المتهم إلى هذا كله في هدوء، ولكنه وهو يفعل هذا ألقى نظرة على المحكمة من حوله، فأبصر شخصين عن شماله فلما وقعت عيناه عليهم تبدلت ملامحه تبديلاً وجه إليه أنظار كل من في المحكمة.

أما هذا الشخصان فكانا فتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها، ورجلاً شديد بياض الشعر لم يكن يخفي على الحاضرين أنه والدها، وكانت إحدى يدي الفتاة لوسي ممتدة تحت ذراع والدها الشيخ، وهي تنظر إلى السجين

بشيء كثير من الاسى والعطف، وعرف جري ممن كان حولهما من الناس
أنهما جاءا ليشهدا على السجين.

وقام النائب العمومي ليبدأ أقواله نائباً عن الحكومة، فقال: "لقد
اعتاد هذا السجين أن ينتقل بين إنجلترا وفرنسا ليقوم بعمل ما، وكان جائزاً
ألا يعرف كنه هذا العمل لولا أن ساقنا لنا الأقدار رجلاً شريفاً هو جون
بارساد، وقد كان في يوم ما صديق هذا السجين فعرف حقيقته، كما عثر
روجر كلاي خادم السجين نفسه على أوراق في جيوبه وفي حجرته، وكانت
هذه الأوراق تحوي بيانات عن الجيوش الإنجليزية وأما كنهها وليس في وسعنا
أن نثبت أن هذه الكشوف مكتوبة بخط السجين نفسه، ولكن هذا يدل
على أن السجين ماهر واسع الحيلة، أراد بهذه الوسيلة أن يستر أعماله.

وشهد أولاً جون بارساد بصدق هذه الوقائع، ثم أخذ مستر استريفير
المدافع عن تشارلس دارني يوجه إليه الأسئلة الآتية:

"هل كنت في يوم ما جاسوساً؟"

"لا بكل تأكيد"

هل سجنك في حياتك؟"

"لا"

"ألم تدخل قط سجن المدينتين؟"

"لست أدري ما علاقة ذلك بهذه القضية؟"

"قل! ألم تدخل قط سجن المدينتين؟"

بلى دخلته"

"كم مرة؟"

"مرتين أو ثلاث مرات"

"هل اتهمت يوماً ما بالخيانة؟"

"لم يكن هذا إلا في لعب الورق - قالوا هذا عني، ولكنهم كانوا

سكارى"

"وهل أنت واثق من أنك تعرف السجين حق المعرفة؟"

"نعم"

هل تتوقع أن تؤجر على شهادتك؟"

"لا بالتأكيد"

ثم دعى بعد ذلك روجر كلاي للشهادة، فقال إنه كثيراً ما رأى أمثال هذه الكشوف، وهو يرتب ملابس السجين، وأنه وجد الكشوف (المعروضة على المحكمة) في حجرة السجين، وراه يعرضها على رجل

فرنسي في كاليه، ووجه مستر استريفير أسئلة إلى روجر كلاي، أقر على
أثرها بأنه كان يوماً ما لصاً.

ثم دعى مستر لرى، وسئل هل رأى السجين من قبل، فأجاب بأنه
رآه يركب السفينة في كاليه.

"وفي أي وقت ركبها؟"

"بعد منتصف الليل بقليل"

"أكنت مسافراً مع أحد مع الناس يا مستر لرى؟"

"كان معي رفيقان: سيد، وسيدة، وهما هنا"

"يا آنسة مانت!"

ووقفت الآنسة مانت، وكانت عيون الناس كلهم تتجه إليها قبل أن
تدعى للشهادة.

"انظري يا آنسة مانت إلى السجين"

وكان يصعب على تشارلس دارني قبل هذه اللحظة أن يقف أمام
ذلك الجمع الحاشد في ساحة المحكمة، ولكنه بدا حتى هذه اللحظة هادئاً
غير مضطرب، أما الآن وقد واجهه شباب لوسي مانت وجمالها، ورقة قلبها
وحناؤها، فقد أخذت شفتاه ترتجفان.

"هل رأيت السجين من قبل يا آنسة مانت؟"

"نعم، يا سيدي"

"أين؟"

"على ظهر السفينة التي ذكرت توأ"

"وهل تحدثت إلى السجين؟"

"لما ركب السفينة لاحظ أن أبي متعب جداً، وأن صحته معتلة،
فتفضل بمساعدتي على أن أقي أي من الرياح ومن حال الجو"

"وهل جاء إلى السفينة وحدة؟"

"لا"

"كم من الناس جاءوا معه"

"رجلان فرنسيان"

"وهل تبادلوا فيما بينهم أوراقاً كهذه الكشوف؟"

"لقد تبادلوا أوراقاً، ولكني لا أعرف أي أوراق هي"

"وماذا قال لك السجين؟"

"لقد كان رحيماً طيباً، وكان ذا فائدة لوالدي"، وفي هذه اللحظة أذرفت الشاهدة الدمع، وقالت: "أرجو ألا أجزيه على حسن صنيعه بأن أسيء إليه في هذا اليوم".

"إن كل إنسان يا آنسة مانت يعرف أنك جئت إلى المحكمة بغير رضاك، جئت لأن ذلك واجبك، وأرجو أن تستمري"

"قال لي إنه مسافر للقيام بعمل من نوع دقيق، وإنه لذلك ينتحل اسماً غير حقيقي، وقال إنه قد يضطر إلى التنقل بين فرنسا وإنجلترا مراراً كثيرة في المستقبل.

"وهل ذكر شيئاً عن أمريكا؟"

"حاول أن يشرح كيف بدأ ذلك النزاع، وقال إنه يرى أن إنجلترا مخطئة فيه، وزاد مازحاً إن جورج واشنطن قد تعادل شهرته في التاريخ شهرة جورج الثالث".

ورفع القاضي عينيه عن مذكراته في غضب ودهشة حين سمع هذه الألفاظ، ولاحظ كل من كان في المحكمة ما بدا على الشاهدة من الاضطراب حين نطقت بها.

ثم استدعى الدكتور مانت وسئل هل رأى السجين من قبل؟

"مرة واحدة حين جاء لزيارتي في لندن"

"وهل سافر معك في السفينة؟"

"لا أستطيع أن أجزم بهذا"

"وهل هناك سبب خاص يجعلك غير قادر على الجزم به؟"

"نعم هناك"

"هل كان من سوء حظك أن قاسيت آلام السجن الطويل في بلدك دون أن تحاكم أو توجه إليك تهمة؟"

"سجنت طويل"

"وهل كنت في ذلك الوقت قد أطلق سراحك منذ قليل؟"

"يقولون لي هذا"

"ولكنك لا تذكر شيئاً"

"لا أذكر شيئاً بين الوقت الذي كنت فيه أصنع الأحذية في السجن والوقت الذي ألفت نفسي فيه أعيش في لندن مع ابنتي العزيزة".

ثم دعى شاهد آخر، فقال إنه رأى السجن في فندق مدينة فيها حوض لبناء السفن ومعسكر للجنود، وكان المحامون يحاولون أن يثبتوا أنه ذهب إلى ذلك المكان للحصول على معلومات ذات قيمة عظيمة.

وكان يبدو على سدني كارتن طوال ذلك الوقت أنه لا يلقي بالاً إلى ما يحدث، وكل ما في الأمر أنه كان يجلس هناك وينظر إلى السقف، أما في هذه اللحظة فقد كتب كلمات قليلة على ورقة وألقاها إلى مستر استريفير فلما بحثها هذا قال للشاهد:

"وهل أنت واثق كل الوثوق من أن الذي رأيته هو السجين؟"

"واثق كل الوثوق"

"وهل شاهدت في حياتك أحداً شبيهاً بالسجين؟"

"لم أر أحداً شديد الشبه به إلى حد يجعلني أخلط بينهما"

فقال مستر استريفير: "تأمل جيداً في هذا السيد، في صديقي العالم الجالس هناك، وأشار إلى الرجل الذي ألقى إليه الورقة"

"هل تظن أنه يشبه السجين؟"

وكان في وسع كل من في المحكمة أن يبصر ما كان بين الأثنين من شبه عظيم، وأن يدهش أشد الدهشة من هذا التشابه، رغم أن صديقه العالم كان رث الهيئة، قليل العناية بملابسه، وأنه كان يلبس زي المحامين.

وقال مستر استريفير: "وإذا كان رجل بينه وبين السجين هذا الشبه الشديد يمكن أن يوجد مصادفة في ساحة المحكمة، فقد يوجد أيضاً في ذلك الفندق بطريق الصدفة رجل آخر شديد الشبه به".

وبهذا أصبحت شهادة هذا الشاهد عديمة القيمة.

ولم يبق بعدئذ شهود آخرون تسمع شهادتهم، وعلى هذا ألقيت الكلمات الختامية، وأبدى القاضي ملاحظاته، وخرج المحلفون بعدئذ من المحكمة ليتداولوا في حكمهم.

وما من شك في أن مستر كارتن كان يلاحظ مما يحدث في المحكمة أكثر مما يبدو عليه، وشاهد ذلك أنه كان أول من صرخ حين أغمى على الأنسة مانت، فقال:

"أيها الضابط، أعن ذلك السيد على أن يخرج هذه السيدة من المحكمة، ألا ترى أنها توشك أن تقع على الأرض؟"

ولاح على السجين أنه قد ضايقه كثيراً ما سببه للآنسة مانت من متاعب، ولذلك طلب إلى مستر كارتن أن يخبرها بأنه يأسف، لأنه كان سبب شقائها.

وغاب المحلفون ساعة ونصف ساعة استغرق جري كرنشر خلالها في النوم، فلما استيقظ على أثر عودتهم تقدم إلى مستر لري، وأخذ منه ورقة كتبت عليها بسرعة هذه العبارة: "غير مذنب".

الفصل الرابع

سدني كارتن

وقابل مستر تشارلس دارني خارج المحكمة أصدقاءه وهم الدكتور مانت ولوسي مانت ومستر لري ومستر استريفير الذي دافع عنه ومستر كارتن مساعد مستر استريفير.

ولم يكن من السهل أن يتعرف الإنسان على دكتور مانت صانع الأحذية في باريس، فقد بدا عليه أنه تغلب كل التغلب على مأساته الرهيبة فطفح وجهه بالبشر، واستقام عوده، وبدت عليه علائم القوة والصحة، وكان يبدو عليه في بعض الأحيان، إذا طافت به ذكريات سجنه، وكأن سحابة قائمة تستقر عليه، ولم يكن في وسع أحد أن يزيل عنه هذه السحابة القائمة في مثل ذلك الوقت إلا ابنته المحبوبة لوسي.

وقبل المستر دارني يد الأنسة مانت اعترافاً بجميلها، ثم شكر مستر استريفير من قبله، فرد عليه هذا بقوله: "إني مغتبط لأني أنقذت حياتك وشرفك يا مستر دارني، لقد كانت التهمة الموجهة إليك تهمة خبيثة ولكنها تهمة خطيرة".

فأجابه دارني بقوله: "لقد أنقذت حياتي، ولن أنسى ذلك ما حييت".

وقال مستر لري: "وقد قاسينا أشد التعب في هذا اليوم، والآنسة
لوسي تظهر عليها علائم المرض، ومستر دارني قد مر به وقت عصيب،
وكلنا متعبون منهوكو القوى، فلنذهب جميعاً إلى منازلنا وننام".

فقال مستر استريفير: "إنك تتحدث عن نفسك، أما أنا فإن لدي
عملاً يشغلني طوال الليل".

وحدق الدكتور في دارني، وتغير وجهه تغيراً غريباً وهو يحدق فيه،
وكان الذي طاف بوجهه هو طائف الكره بل والخوف.

وقالتلوسي لوالدها وهي تضع يدها على يده: "أتذهب إلى البيت يا
أبي؟"

فتنفس نفساً طويلاً وأجابها بقوله: "نعم" واستدعيت عربة وركبها
الوالد وابنته وغادرا المكان، كما غادره أيضاً مستر استريفير وتبعه على
الأثر مستر لري، ولم يبق إلا دارني وكارتن.

وقال كارتن لصاحبه: "إن علامات الإعياء بادية عليك يا مستر
دارني".

فأجابه دارني: "إني أشعر حقيقة بشيء من الإعياء".

"إذن تعال واشرب معي شيئاً من النبيذ، إني أعرف حانة فيها نبيذ
جيد".

ولم يمض إلا قليل حتى كان الرجلان يجلس كل منهما أمام الآخر.

وسأل كارتن صاحبه: "هل تحس بأنك عدت كما كنت من خلق هذا العالم؟"

"نعم؛ لا أزال مرتبكاً، ولكني أظن أنني أحس بذلك"

وملاً كارتن قدحاً من النبيذ وشربه.

وقال: "ومن شأن هذا أن يدخل السرور عليك، أما أنا فإن أعظم ما أرغب فيه أن أنسى أنني من خلق هذا العالم، ذلك أنه عالم لا خير فيه لي وليس في خير له"

ولم يعرف تشارلس دارني بماذا يجيب عن هذا.

وواصل كارتن حديثه قائلاً: "إن الآنسة مانت يا صديقي فتاة جميلة وأي شعور يحس به الإنسان إذا كانت فتاة جميلة مثلها تشفق عليه وتبكي من أجله؟ وما من شك في أنها أشفقت عليك وبكت من أجلك، فقد رأيت ذلك بنفسي"

ولم يجب دارني عن هذا أيضاً ولكنه شكر له مساعدته إياه في أثناء المحاكمة.

فرد عليه صاحبه بقوله: "إني لا أريد شكرك ولا أستحقه، وأسمح لي
يا مستر دارني أن أوجه إليك سؤالاً: هل تظن أنني أحبك؟"

"في الحق يا مستر كارتن أنني لم أفكر في هذا"

"حسن، إذن فلنتفكر فيه الآن"

فأجابه دارني: "لقد فعلت فعل من يجني، ولكني لا أظنك تحبني
حقاً"

"ولست أظن أنني أحبك"

وقال مستر دارني: "نعم، وليس ثمة ما يمنعنا أن نفترق افتراق
الأصدقاء، واسمح لي أن أدفع الحساب"

فأجابه كارتن: "لك ذلك بالتأكيد، هل تريد أن تدفع حسابنا
جميعاً؟"

فأجابه دارني: "نعم أريد ذلك"

فقال كارتن: "إذن هات لي قدحاً آخر من النبيذ يا ساقى وأيقظني
في الساعة العاشرة"

ودفع دارني الحساب ومسى كارتن وانصرف، ولما انفرد كارتن بنفسه
قام ونظر إلى هيئته في مرآة معلقة على الجدار، فرأى أنه رجل ذو مواهب

عقلية عظيمة وقلب طيب، ولكن هذه المواهب لم تستخدم بعد على خير وجه، وقد غضب من دارني لأن هذا كان شبيهاً به كل الشبه في مظهره، ولكنه يفوقه كثيراً في غير هذا من الأمور، ثم لوسي، إن تفكيره في لوسي قد ملأ قلبه حقداً على زميله، واحتسى كارتن قدراً آخر من النبيذ وتوسد ذراعيه واستغرق في النوم.

وجاء الساقى بعد بضع ساعات وأيقظ كارتن، فاتخذ طريقه إلى حجرات مستر استريفر ليساعده على تحضير قضايا اليوم الثاني.

وأخذ سدني كارتن يشتغل بإعدادها بينما كان مستر استريفر يراقبه وهو راقد على أريكة، وكثيراً ما كان كلاهما يلجأ إلى زجاجة من النبيذ، فقد كان الناس كلهم تقريباً يدمنون الشراب في تلك الأيام، ولما أعد كارتن الأوراق نقلها إلى مستر استريفر، ثم أخذاً يبحثان القضايا معاً ويشربان فوق ما شربا من النبيذ.

وقال مستر استريفر: "لقد فرغنا الآن يا سدني، ولقد أعددت قضايا اليوم أحسن إعداد، فكنت عظيم النفع، وكان لكل سؤال أثره، فهزمت أولئك الشهود شر هزيمة".

فأجابه كارتن: "وأنا دائماً عظيم النفع، أأست كذلك؟"

"لست أنكر هذا ولكن أي شيء سبب لك هذه الغلطة في الطبع؟
إنك لا تتحول عن طبعك هذا، فأنت سدني كارتن كما كنت معي في
المدرسة، تارة مرحة وتارة يائس"

"نعم أنا نفس الرجل، ويلازمني سوء الحظ نفسه، وحتى حين كنت في
المدرسة كنت أحل التمارين لغيري من التلاميذ بدل أن أحل تماريني أنا"

"لقد كانت هذه غلطتك على الدوام، فليس في جهودك شيء من
الهمة وليست موجهة إلى غاية، أتعرف لم نجحت أنا هذا النجاح وأخفقت
أنت هذا الإخفاق؟"

"يرجع بعض السبب في هذا فيما أظن إلى أنك تستأجبرني
لمساعدتك، ولكنك كنت على الدوام متقدماً عني كثيراً وكنت أنا متأخراً
عني كثيراً"

فأجابه استريفر: "نعم هذا صحيح، لقد وجدت أنت مكانك اللائق
بك ووجدت أنا مكاني اللائق بي"

وواصل كارتن حديثه قائلاً: "بل إنا حين كنا نطلب العلم في باريس
كنت أنت على الدوام في موضع ما وكنت أنا على الدوام في غير موضع"

"ومن المعلوم على ذلك؟"

"لا تجعلنا نتحدث عن هذا"

وقال استريفير: "إذن فلنشرب آخر قدح من النبيذ لصحة الشاهدة
الحسنة"

"إنها ليست حسنة"

"بل هي حسنة، وكانت موضع إعجاب كل من في المحكمة"

"إن تلك المحكمة لا تصلح للحكم على الجمال"

"إنك تدهشني بهذا القول، لقد ظننت في ذلك الوقت أن قلبك
شديد الميل إلى هذه الفتاة، فقد أدركت من فورك ما حدث لها"

"لقد أدرك كل إنسان ما حدث لها، ولست أريد الآن أن أشرب
أكثر مما شربت سأوي إلى فراشي"

وغادر الدار، وسار في الشوارع الباردة المكتئبة، وارتقى الدرج إلى
حجرة عالية، وألقى نفسه على سرير مهملاً كثيراً ما بلل وسائده بدموع لم
تجده نفعاً.

ها هو ذا رجل طيب، رجل ماهر، ولكنه رغم هذا لم يستطع في يوم
من الأيام أن يفعل الخير لنفسه ولا أن يجد السلام.

الفصل الخامس

الدكتور مانت في لندن

كان مستر جارفيس لري في عصر يوم أحد بعد أربعة شهور من محاكمة تشارلس دارني يسير في الشوارع المشمسة في طريقه إلى صديقه الدكتور مانت ليتمشى معه، وكان الطبيب وقتئذ يسكن في طابقين من عمارة في شارع من شوارع لندن الهادئة، وكان يكسب من المال بقدر ما هو في حاجة إليه باستقبال المرضى الذين يأتون لاستشارته طيباً.

ولما وصل مستر لري إلى المنزل دق جرس الباب وقال: "هل الدكتور مانت في المنزل؟"

"لم يأت بعد يا سيدي"

"وهل الآنسة لوسي في المنزل؟"

"لم تأت بعد يا سيدي"

"وهل الآنسة برس في المنزل؟"

"لست متأكداً من هذا يا سيدي"

"حسن، سأصعد إلى الطابق العلوي وأنتظر"

وكانت ابنة الطبيب قد جعلت مسكنه مريحاً جذاباً، فقد كان لها يد صناع وذوق حسن، وكان في كل طابق من الطابقين اللذين يشغلهما الطبيب ثلاث حجرات، وكانت الأبواب التي بينها مفتوحة حتى يتخللها كلها الهواء الطلق، وبينما كان مستر لري ينتقل من حجرة إلى أخرى شاهد في ركن من أركان الحجرة الثالثة دكة صانع الأحذية غير المستعملة والأدوات التي كان الطبيب يستخدمها من قبل في الحانة في باريس.

وقال مستر لري بصوت عالٍ: "يدهشني أن يحتفظ بشيء يذكره بما قاساه"

فرد عليه صوت حاد أفزعته، وكان هذا صوت الأنسة برس:

"ولم يدهشك هذا؟ كيف حالك؟"

"إني بخير، شكراً لك، وكيف حالك أنت؟"

"إني جد قلقة من أجل سيدتي الشابة"

"وهل لي أن أسأل عن السبب؟"

"إن كثيرين من الناس من جميع الأصناف يأتون لزيارتها، وليس هؤلاء

ممن يليق بهم أن يأتوا لهذه الزيارة، إنهم أكثر مما يجب أن يكونوا"

وكان مستر لري يعرف أن الأنسة برس تغضب حين يوجه غيرها من الناس التفاتهم إلى لوسي، وكان يعرف أيضاً أنها من أولئك النساء المؤثرات على أنفسهن واللاتي يبعث فيهن الحب والإعجاب المبرئين من جميع الشوائب الاستعداد بأن يكن بمحض رغبتهن إماء في خدمة الشباب إذا ولى عنهن، والجمال الذي لم يكن يوماً هن، والآمال الحلوة البراقة، التي لم تستطع شمسها يوماً ما على حياتهن التعسة المظلمة، وكان يعرف هو أن لا شيء في هذا العالم أفضل من خدمة الناس بإخلاص صادر من القلب فكان لهذا يحترم الأنسة برس أكثر من احترامه للكثيرات من السيدات الموسرات، اللاتي هن أموال في مصرف تلسن.

وقال لها: "أسمحين لي أن أوجه إليك سؤالاً؟ هل يذكر الطبيب للوسي حين يتحدث إليها الوقت الذي كان يصنع فيه الأحذية؟"

"لا، أبداً"

"أليس في هذا بعض الغرابة؟ إن جميعاً نعرف أنه لم يرتكب أية جريمة فلم إذن لا يذكر ذلك الوقت؟"

"أظنه يخاف هذا الموضوع كله، ولعله يخشى أن يفقد ذاكرته مرة أخرى، وهذا مما يجعل الموضوع بغيضاً له"

"هذا حق"

وواصلت الأنسة برس حديثها قائلة: "وهو يصحو أحياناً في منتصف الليل، ويدرع حجرته جيئة وذهاباً، فتذهب سيدتي وقتند إليه، ويسيران في الحجرة معاً، حتى يزول عنه بعض اضطرابه، ولكنه لا يذكر لها كلمة واحدة عن منشأ هذا الاضطراب"

وفي هذا الوقت أخذ يتردد في الشارع صدى وقع أقدام، كأن مجرد ذكر السير القلق في الحجرة ذهاباً وجيئة قد بعث هذا الصدى.

وقالت الأنسة برس: "ها هما مقلان!"

وما كان أظرف منظر الأنسة برس، وهي تخلع عن حبيبتها لوسي معطفها وقبعتها، وتسوي لها شعرها الغزير، وكان منظر لوسي هي الأخرى ظريفاً، وشكرت لها حسن صنعها، وتبسم الطبيب، وهو يقول إن الأنسة برس قد أفسدت ابنته بإفراطها في الحنو عليها.

وخرجوا بعد العشاء وجلسوا في الحديقة، وأقبل عليهم مستر دارني وهم جلوس فيها لزيارتهم، وأحسن الدكتور مانت ولوسي استقباله، وإن كانت علائم الغضب قد ظهرت على الأنسة برس، وغادرت المكان.

وجلسوا يتحدثون، وتطرق الحديث إلى موضوع الأبنية القديمة في لندن.

فسأل مستر دارني الطبيب خلال حديثه معه: "هل رأيت كثيراً من برج لندن؟"

"لقد ذهبنا إليه أنا ولوسي، وشاهدنا فيه ما يكفي لأن نعرف أنه بناء
جد طريف".

وقال دارني بشيء قليل من الغضب: "لقد كنت أن فيه كما تعلمان،
كنت فيه، وأنا أحاكم بتهمة أي عدو الملك، ومن أجل هذا لم أستطع
مشاهدة كثير منه، ولقد حدثوني وأنا فيه عن شيء عجيب"

وسألته لوسي: "وما هو ذلك الشيء؟"

"لقد وجد بعض العمال، وهم يحدثون فيه بعض لتعديل، حجرة
قديمة منسية، وكانت جدران تلك الحجرة مغطاة بتواريخ وأسماء وأدعية،
وأشياء أخرى من هذا النوع، كتبها المسجونون القدماء، وكان من بين
الكلمات المكتوبة على هذا الجدران كلمة "احفر"، وكان من أثر عثورهم
عليها أن فحص عما تحت أرض هذه الحجرة فحصاً دقيقاً، فوجدوا تحت
حجر من حجارها رماد أوراق، وبقايا كيس من الجلد، ولن يقرأ أحد في
يوم من الأيام ما كتبه السجين المجهول، ولكنه كتب شيئاً من غير شك"

وصاحت لوسي قائلة: "أبي! هل أنت مريض؟"

ذلك أن الدكتور مانت انتفض قائماً على حين غفلة ويده على
رأسه، وروعهما جميعاً منظره.

"لا يا عزيزتي، لست مريضا، إن نقطاً كبيرة من المطر تتساقط،
وهي التي جعلتني أقف منتفضاً وخير لنا أن ندخل"

وزال ما انتابه على الفور تقريباً، وكان المطر حقيقة يتساقط، وأظهر
لهما ظهر يده وعليه نقط منه، وظن مستر لري أنه شاهد على وجه
الطبيب نفس الأثر العجيب الذي بدا عليه، حين وقعت عينه على دارني
في خارج المحكمة.

وجاء مستر كارتن وقت تناول الشاي، ووقف متكئاً على النافذة،
بينما كان سائر من في الدار جالسين بقربها، ينظرون إلى المطر وهو يتساقط
في خارجها.

وقال الدكتور مانت: "إن عاصفة مقبلة، ولكنها مقبلة ببطء"

وقال كارتن: "إنها مقبلة من غير شك"

وهبت العاصفة أخيراً، وكان انهمار المطر ووقعه، وهزيم الرعد،
ووميض البرق، شديدة غطت على جميع الأصوات، فلم يسمع منها شيء
ودام ذلك إلى ما بعد طلوع القمر في منتصف الليل.

ولما غادر الضيفان الدار كان الناقوس الكبير في كنيسة القديس
بولس يدق الساعة الواحدة، فيسري رنينه في الهواء الذي صفا.

وقال مستر لري: "مساء الخير يا مستر كارتن، مساء الخير يا مستر
دارني، ترى هل نرى ليلة كهذه مرة أخرى في حياتنا مجتمعين؟"

الفصل السادس

حادث باريس

حرج المركيز إفريمند من قصر ملك فرنسا، ونزل على السلم الكبير إلى فناء القصر، واستقل عربته، فسارت به وهو غاضب أشد الغضب، لأن الملك لم يلتفت إليه، ولأن أحداً في القصر لم يتحدث إليه.

وكان مما يسره بعض السرور في هذه الظروف أن يرى العامة يتفرقون أمام جواديه، وهم لا يكادون ينجون من أن يدوسهم الجوادان، وكان خادمه يسوق كأنه يهاجم عدواً، ولم يحاول سيده أن يكبح جماحه، لقد شكا بعضهم قبل من أن اندفاع النبلاء في عرباتهم في الشوارع الضيقة، يعرض العامة للخطر، ولكن شيئاً ما لم يُعمل، وترك الناس المساكين لينجوا بأنفسهم إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

واندفعت العربة في الطرقات وحول المنعطفات، والنساء يصرخن أمامها ويجذبن صغار الأطفال من طريقها، وحدث أخيراً أن مرت العجلات على جسم طفل صغير في منعطف أحد الشوارع، بالقرب من فوارة ماء، وعلت أصوات بعض الناس بالصراخ، وجذب الجوادان ووقفت العربة.

وقال المركيز في هدوء وهو يطل من نافذتها: "أي خطأ حدث؟"

وكان رجل طويل قد أمسك جسم الطفل الصغير، ووضعه على الأرض بجانب الفوارة، وأخذ يندبه بصوت عال.

وقال أحد النظارة: "عفواً يا سيدي المركيز، إنه طفل صغير".

"ولكن لم يصرخ هذا الصراخ الشديد؟ أهو أبنه؟"

"عفواً يا سيدي المركيز إنه ابنه"

وقام الرجل الطويل فجاءة، وجاء يجري نحو العربة، ووضع المركيز يده على سيفه.

وصاح الرجل وهو يرفع يده فوق رأسه: "قتل! مات!"

والنف الناس حولهما وأخذوا ينظرون إلى المركيز، ولم يقولوا شيئاً، ولكنهم كانوا ينظرون إليه والغضب باد في عيونهم.

ونظر المركيز إليهم جميعاً كما ينظر الإنسان إلى جردان خرجت من جحورها، وأخرج كيساً من النقود.

وقال: "يدهشني كثيراً ألا تعنوا أيها الناس بأنفسكم وبأطفالكم، إنكم على الدوام تزحمون الطريق، أنى لي أن أعرف أنكم لم تصيبوا الخيل بأذى؟ خذ أعطه ذلك".

وألقى المركيز قطعة ذهبية من النقود، واتجهت جميع العين إليها وهي تسقط على الأرض، وصاح الرجل الطويل مرة أخرى قائلاً: "مات!".

وتفرقت الجماهير وأفسحت الطريق لرجل آخر، فلما رآه الرجل الطويل أسند رأسه إلى كتفيه، وأشار بيده إلى بعض النسوة وقد انحنين على جسم الطفل الصغير، وأخذن يمشين بخفة حوله، ولكنهن ظلن صامتات كما ظل الرجال صامتين.

وقال الرجل الذي قدم أخيراً: "لقد رأيت الحادث وقت وقوعه، وأنا أعرف كل شيء، تشجع باجاسبرد، وقد يكون الموت أفضل من الحياة للطفل الصغير المسكين، لقد مات في لحظة وجيزة من غير ألم، فهل كان في مقدوره أن يعيش من غير ألم؟".

وناداه المركيز قائلاً: "يا هذا! إنك رجل عاقل، أي اسم يطلقونه عليك؟".

"إنهم يسمونني دفارج".

"وما صنعتك؟"

"بائع نبيذ"

وقال المركيز وهو يلقي على الأرض قطعة أخرى من النقود الذهبية:

"إرفع تلك القطعة أيها الرجل العاقل بائع النبيذ، وأنفقها كيف تشاء، ألم يُصب هذان الجوادان بأذى؟"

واتكأ النبييل بظهره في مقعده من غير أن يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة أخرى على العامة، وأوشك أن يسير بعربته، وكان وقتئذ تبدو عليه سيماء الرجل الذي كسر بطريق الصدفة شيئاً عادياً وأدى ثمنه، ولكنه ما لبث أن أقلق باله فجاءة قذف قطعة نقود ذهبية في عربته وسقوطها برنين على أرضها.

وصاح المركيز في هدوء ومن غير أن يرفع صوته: "أيها الكلاب، إني لتطاوعني نفسي بأن أدوس أي واحد منكم، ولو أُنِي عرفت الذي ألقى هذه القطعة منكم لحطمت جسمه تحت عجلات عربتي".

وكان العامة أشبه الناس بالرقيق، يخافون النبلاء خوفاً لم يجرؤ معه واحد منهم على أن يرفع عينيه إلى وجهه، ولكن المرأة التي كانت واقفة هناك تطرز نظرت إليه وظلت تحديق في وجهه، وتظاهر هو بأنه لم يلتفت إليها واتكأ بظهره في مقعده وأمر السائق بالمسير.

وسارت العربة مسرعة تخترق شوارع باريس الحقيمة، حتى خرجت منها إلى الخلاء، وسارت في ريف جميل، ولكن المحاصيل فيه كانت ضئيلة حقيرة، حقيرة كالعمال الذين يحاولون زرعها، كأن الأرض نفسها تشترك مع الناس في بؤسهم.

وقبيل الغروب كانت العربية يجرها الجوادان في بطء صاعدة فوق تل وعر المنحدر، ونظر إليها رجل كان ممن يعبدون الطرق وهي مارة به، نظر إليها والدهشة بادية في عينيه، ثم جرى أمامها صاعداً إلى قمة التل، ونظر إليها مرة أخرى وهي مارة به، ثم انحدرت بسرعة من فوق التل إلى قرية حقيرة، وكان القرويون جميعاً فقراء، وكان كثيرون منهم يجلسون أمام أبواب بيوتهم يهينون لعشائهم ما استطاعوا أن يجمعوه من الطعام القليل، وقلما كان الإنسان يشاهد بينهم أطفالاً، أما الكلاب فلم يكن لها وجود، وكادت الضرائب الفادحة أن تهلك القرية، فقد كانت تشمل ضريبة الدولة، وضريبة الكنيسة، والضريبة العقارية، والضريبة المحلية والضريبة العامة، حتى ليدهش المرء كيف بقى في القرية إنسان.

ووقفت العربية في القرية، وحدق الفلاحون فيها، ونظر المركيز إلى العامة وانحدر معبد الطرق على سفح التل.

وقال المركيز لسائقه: "جىء بذلك الشخص إلى هنا".

وجيء به.

"لقد مررت بك في الطريق"

"نعم يا سيدي، لقد أوليت شرف مرورك بي"

"لقد مررت بك على سفح التل، ثم مررت بك بعدئذ في أعلاه لم

كنت تنظر إلى العربية هذه النظرة الغريبة؟"

"لقد كنت يا سيدي أنظر إلى الرجل، فقد كان تحت العربة رجل،
وكان معلقاً فيها بالسلسلة".

ومن كان ذلك الرجل؟ إنك تعرف جميع رجال هذه الجهة، فمن كان
الرجل؟"

"عفواً يا مولاي، لم يكن من أهل هذه الجهة، لقد كان رجلاً غريباً لم
أره قط من قبل".

"وكيف كان شكله؟"

"مولاي، كان جسمه كله مغطى بالتراب، وكان أبيض كالطيف،
وطويلاً كالطيف"

وماذا أصابه؟ هل جرى؟

"لقد جرى يا مولاي منحدرًا على التل كأن الشيطان من وراءه"

وقال المركيز: "ما أشد حمقك، أكبر الظن أنه لص، ومع ذلك لم تقل
شيئاً، اذهب عنا، مسيو جابل!"

وكان جابل وكيل المركيز، يجمع له الضرائب وإيجار الأرض.

"إذا جاء هذا الرجل إلى القرية فألق القبض عليه يا جابل"

"يسعدني يا مولاي أن انفذ أوامرك"

وقال المركيز: "سر"

وكان الظلام قد خيم حين وصل المركيز إلى قصره، وخرج الخدم والمشاعل في أيديهم ليستقبلوه، وفتح له الباب الكبير.

وقال: "إني في انتظار قدوم تشارلس ابن أخي من لندن، ألم يأت

بعد؟"

"لم يأت بعد يا مولاي".

الفصل السابع

دارني وعمه المركيز

وصعد المركيز الدرج الواسعة في قصره وأمامه مشعل يضيء له الطريق، واخترق الردهة الكبرى وارتقى الدرج إلى حجراته الثلاث الخاصة في الطابق الأعلى، وكانت مائدة العشاء قد أعدت لشخصين في ثلاثة هذه الحجرات.

وقال: "إن ابن أخي لم يصل بعد، ولست أظن الآن أنه سيصل في هذه الليلة، ولكن اتركوا المائدة على حالها، وسأكون مستعداً في خلال ربع ساعة".

وبينما هو يتناول العشاء إذ سمع قرقعة عجلات، وأمر بأن يبلغ بن أخيه أن العشاء في انتظاره، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أقبل ابن الأخ، وكان معروفاً في إنجلترا باسم تشارلس دارني.

وقال للمركيز وهو يجلس إلى المائدة: "هل غادرت باريس بالأمس يا سيدي؟"

"نعم بالأمس، وأنت؟"

"أنا قادم من لندن مباشرة"

"لقد غبت زمناً طويلاً"

"شغلتنى أعمال متنوعة"

وقال العم في هدوء عظيم: "قد يكون هذا مستطاعاً، وإني لأذهب إلى حد أن أفعل هذا من أجل شرف الأسرة".

"وأرى لحسن حظي أنك قد استقبلت مرة أخرى بفتور"

وأجاب العم بقوله: "يؤسفني أن أقول إن الأسر العظيمة لا يسهل عليها في هذه الأيام أن تحظى بالمنن الصغيرة، ذلك بأن هذه المنن مطمع الكثيرين، وهي حال لم تكن في الأيام الماضية، ولكن فرنسا ساءت حالها في هذه الأشياء جميعها، لقد كان من حق آبائنا أن يحكموا بالحياة أو بالموت على من حوهم من الناس، ولكننا فقدنا كثيراً من حقوقنا، وكل هذا شر أيما شر"

وقال ابن الخ والحزن باد عليه: لقد سلكنا شر مسلك في الماضي وفي الحاضر، حتى أصبح اسمنا مكروهاً في فرنسا أكثر من أي اسم آخر"

"فلنرج هذا، إنه يدل على الاحترام"

"إن الاحترام الوحيد الذي أشاهده حولنا هو الاحترام الناشئ من الخوف والاستعباد، وإني لأبغض النظام الذي خلفه لي والدي، أخوك، فأنا قطعة من هذا النظام، ولكنني لا حول لي فيه ولا قوة، أحاول أن أطيع

آخر رجاء وجهته لي أمي، وهي على فراش الموت، إذ قالت إني يجب عليّ أن أكون رحيماً، وأن أرد الظلم الذي ارتكبت

"وإذا طلبت إلى العون فسيذهب طلبك على الدوام أدراج الرياح"

وقال تشارلس: "لقد خسرت هذه الأملاك، وخسرت فرنسا إني أخرج عنهما جميعاً"

"إنها لم تصبح بعد ملكاً لك"

"لو أنها آلت إليّ غداً لما قبلتها"

"أرجو أن يكون هذا بعيد الاحتمال، وأعتقد أنه كذلك"

"لقد قامت على البؤس والخراب، إنها صرح من التبتيد، وسوء الإدارة، والاستدانة، والجوع، والعذاب!"

ورفع المركيز عقيرته، وقد بدت عليه علائم الرضا، وقال "ها!"

"وإذا آلت إليّ في يوم من الأيام فسأعطيها لإنسان يخلصها من الأثقال التي تهوى إلى الحضيض"

وقال العم: "وماذا تفعل أنت؟ كيف تريد أن تعيش؟"

"سأعمل"

"في إنجلترا على ما أظن؟"

نعم، إن اسم أسرتي لن يضار بي هناك، لأني لا أسمى به فيها"

وسأله المركيز: "وأنت تعرف رجلاً فرنسياً لجأ إليها ووجد فيها حمى؟"

"نعم"

"وهو طبيب وله ابنة"

"نعم"

وقال المركيز: "نعم، إنك متعب، أسعدت مساء"

"وبدت على ملامحه، وهو يومئ برأسه في أدب شواهد من السرية،
كان لها أثر قوي في نفس ابن أخيه، ولكنه عرف أن لا فائدة ترجى من
الاسترسال في الأسئلة.

وقال العم: "عم مساء! وأنعم بالنوم! أضئ يا سيدي طريق ابن أخي
إلى حجرته..."، ثم أضاف إلى ذلك قوله لنفسه بصوت خافت: "واحرقه
في فراشه إن أحببت"

وذهب المركيز نفسه إلى حجرة نومه بعد أن خرج ابن أخيه من
عنده، وخيم الظلام على القصر العظيم كما خيم على كل الإقليم المحيط
به، وحلم الجياع بالطعام الشهي والمتعبون بالراحة والهدوء، ولاحت تباشير

اليوم الثاني حين فاض ضياء الشمس على القصر والشجر والحقل والقريبة، وخرج الرجال والنساء إلى أعمالهم في برد الصباح، بعضهم يحفرون الأرض في الحقول، وبعضهم يأخذون بأرسال بقراهم العجاف إلى ما عساهم يعثرون عليه من الكالأ على جوانب الطرق.

واستيقظ من في القصر بعد أن استيقظ الناس، وفتحت النوافذ، وتطلعت الخيول وراءها إلى النور، وإلى النضارة، يتدفقان من الأبواب، وأخذت الكلاب تجذب سلاسلها بقوة وفي ملل تريد أن تنطلق، فقد كانت هذه كلها هي الحوادث المألوفة حين يعود الصباح، ولكن لم كان الجرس الكبر في الكنيسة يدق؟ ولم كان الناس يعدون صاعدين ونازلين على الدرج؟ ولم كان غيرهم يسرجون خيولهم ويركبونها مسرعين إلى بعيد؟ وما معنى كل هذه العجلة، وهذا الاضطراب؟

كان معنى هذا كله مستقراً في سرير المركيز، فقد نفذ خنجر في قلب هذا الجسم الساكن النائم فوق ذلك الفراش، وكان حول مقبض الخنجر ورقة كتبت عليها بأحرف غليظة هذه العبارة: "أرسلوه بسرعة إلى قبره، هذا من -جاك"

الفصل الثامن

دارني يتحدث عن الحب

مر اثنا عشر شهراً وأصبح مستر تشارلس دارني يعمل مدرساً للغة الفرنسية وآدابها، وكان يقضي بعض الوقت في كامبردج، وعرف فيها بأنه من خيار المدرسين الذين يدرسون اللغات الحديثة، أما بقية وقته فكان يقضيه في لندن.

وكان شاباً، وكان عاشقاً، عشق لوسي مانت من الساعة التي تعرض فيها للخطر، ولم يكن قبل أن يراها قد سمع صوتاً يشبه في حلاوته صوتها العذب، ولم تقع عينه من قبل على وجه يماثل في جماله ذلك الوجه الذي أبصره أمامه وهو واقف على حافة القبر، ولكنه مع ذلك لم يتحدث إليها في هذا الموضوع.

ومضى عام مذ غادر فرنسا، وكانت ذكرى القصر ومقتل عمه فيه تتراءى له، كأنها حلم مزعج، ولم يتحدث عن حبه هذا لأي إنسان.

وأقبل يوم من أيام الصيف، وكانت قد عاد قبله بأيام قلائل من كامبردج معتماً أن يتحدث إلى الدكتور مانت عن حبه للوسي، واتخذ

طريقه إلى بيت الطبيب، وهو يعرف أن لوسي في ذلك الوقت قد خرجت مع الآنسة برس.

ووجد الطبيب جالساً على كرسيه الساند بجوار إحدى النوافذ، وقد عاد إليه بعض نشاطه الذي أعانه على تحمل آلامه الرهيبة، فأضحى وقتئذ قوياً في عقله، وفي بدنه، وأخذ يدرس كثيراً، وبدأ عمله الطبي من جديد، وكان في العادة عظيم البشاشة، لا تطغى على ضياء عقله سحابة قائمة إلا نادراً، ولما دخل عليه دارني ألقى بكتابه ومد إليه يده.

وقال دكتور مانت: "تشارلس دارني، إني يسرني أن أراك، ونحن في انتظارك من أيام عدة، وبالأمس كان هنا مستر استريفير ومستر كارتن، وقال كلاهما إنك تأخرت علينا أكثر من عادتك"

ولم يسترح دارني كثيراً حين سمع أن هذين الرجلين جاءا إلى المنزل، وسأل عن صحة الآنسة مانت.

"إنها بصحة جيدة، وقد خرجت مع الآنسة برس، ولكنها ستعود بعد قليل"

"كنت أعرف يا دكتور مانت أنها في خارج البيت، ولذلك انتهزت فرصة غيابها عن الدار لأستأذنك في التحدث إليك.

وساد الصمت بعض الوقت.

ثم قال الطبيب بنغمة المرتاب:

"نعم، قرب كرسيك وواصل حديثك"

"لقد أسعدني الحظ بالتردد على داركم في خلال الثمانية عشر شهراً
الماضية، وأرجو أن يكون الموضوع الذي سأحدث إليك عنه ..."

"وهل لوسي هي موضوع الحديث؟"

"نعم هي موضوعه، إني أحب ابنتك يا دكتور مانت حباً جماً عارماً
صادراً من أعماق قلبي"، وإذا كان في العالم حب صحيح فهو حبي إياها،
ولقد أحببت أنت من قبل، فليكن حبك القديم شفيعي إليك"

وجلس الطبيب، وقد أدار وجهه عنه، وبدت في عينيه عقب كلمات
دارني سمات الألم الشديد.

"دع ذلك يا سيدي! أرجوك ألا تتحدث في ذلك"

وكانت صرخته شبيهة بصراخ الألم الحقيقي، ومد يده كأنه يرجو دارني
أن يمسك لسانه عن الكلام، وصمت دارني بعض الوقت، فلم ينبس ببنت
شفة.

وقال الطبيب بنغمة منخفضة: "لا تؤاخذني، إني لا أرتاب في حبك
للوسي، فهل تحدثت إليها في هذا الموضوع؟"

"لا يا سيدي، ولم أكتب إليها، وذلك لسبب أنت تعرفه ... إني أعرف قيمة ابنتك لك، إني أعرف أنها أصبحت لك بعد عودتك إلى الحياة أكثر من ابنة، وأكثر من زوجة، وأعرف أنجبها لك وحبك لها هما أهم الأشياء في حياتكما جميعاً"

وظل الدكتور مانت صامتاً مطرقاً بوجهه إلى الأرض.

وزادت سرعة تنفسه بعض الشيء، ولكنه لم يبد عليه شاهد آخر، يدل على ما كان يحس به من انفعال شديد.

"ولما كنت يا عزيزي الدكتور مانت أعلم قيمتك لها وقيمتها لك، فقد منعت نفسي من التحدث في هذا الأمر أطول وقت استطعته، ولكني أحبها، وأشهد الله على أبي أحبها"

وأجاب الأب في حزن: "إني أعتقد ذلك"

"وإن أسعدني الحظ ففزت بائخاذ لوسي زوجة لي، فلا تخش مطلقاً أن أفرق بينكما، فليس هذا ما أقصده الآن، ولن يكون قصدي في يوم من الأيام"

ثم وضع يده على ذراع الطبيب، وقال: "لا يا سيدي، لقد أخرجني سوء الحكم والبؤس من فرنسا، كما أخرجك، وأنا مثلك، أكسب عيشي في بلد غريب، وكل الذي أرغب فيه أن أقاسمك حظك وأن أقاسمك حياتك وآمالك، وأن أكون وفيّاً لك إلى آخر يوم من حياتي، ولست

أرغب في أن أحول بينك وبين لوسي، بل أريد أن أضيف حبي إلى الحب
الذي يؤلف بينكما"

ونظر إليه الأب، وكانت تدور في نفسه معركة بين عواطفه المختلفة،
لقد كان في وجه دارني من الآثار ما أعاد إليه ذكرياته المريرة، وهي ذكريات
حاول من قبل أن يغلق دونها عقله، ثم قال له:

"إنك تتحدث إلى حديث النبل والرجولة يا تشارلس دارني، وأنا
أشكر ذلك لك، وسأكون صريحاً معك، هل لديك من الأسباب ما
يجعلك تعتقد أن لوسي تبادلك هذا الحب؟"

"لا ليس لدي حتى لأن أي سبب"

"وهل تطلب إلى أن آذن لك بالتحدث إليها في ذلك؟"

"لا يا سيدي، لم يحن هذا الوقت بعد"

"إذن ماذا تريد مني؟"

"أطلب إليك أن تعديني بأل تقول شيئاً في غير مصلحتي إذا أقرت
لوسي إليك في يوم من الأيام بأن تحبني، بل أن تخبرها بما أفضيت به إليك،
وأنا على يقين من أنها لن ترضي مطلقاً إذا ظنت أن سيكون لهذا الرضا
أقل أثر في سعادتك"

فأجابه الطبيب: "لك هذا، وإذا صرحت في وقت من الأوقات بأن سعادتها لا تكتمل إلا بك، فإني سأعطيك إياها، ولن يقف في سبيل ذلك شيء، ولو كان ذكريات ما فقدت من السنين، وما حل بي من الظلم الصارخ"

"شكراً لك، وإن ثقتك بي لجديرة بأن تقابلها ثقة مني بك، إن اسمي الذي أسمى به الآن، وإن لم يفترق إلا قليلاً عما سميتني به أمي، ليس اسمي الحقيقي، كما أخبرتك بذلك من قبل، وأحب الآن أن أبوح لك بهذا الاسم الحقيقي، وبالسبب الذي أنا من أجله في إنجلترا"

فقال الطبيب: "لا تفعل!"

"أريد أن أخبرك بهذا لكي أكون جديراً بثقتك، ولكي لا يكون سر أخفيه عنك"

"لا تفعل فلست أريد أن أسمع، ولتقل لي ذلك حين أطلبه إليك، لا في هذا الوقت، فإذا نجحت في خطبتك، وإذا أحبتك لوسي، كان لك أن تول لي ذلك في صباح يوم زفافك، فهل تعدني بهذا؟"

"وأنا راض مرتاح"

"أمدد لي يدك، إننا ستكون في الدار بعد قليل، وخير لنا ألا ترانا معاً في هذه الليلة، فاذهب على بركة الله!"

وكان الظلام قد خيم حين فارقه دارني، وعادت لوسي إلى دارها بعد قليل، وأسرعت إلى الحجرة وحدها؛ لأن الآنسة برس صعدت إلى الطابق الأعلى، ودهشت حين وجدت الكرسي الساند خالياً.

فصاحت قائلة: "يا أبت! أين أنت؟"

ولكنها لم تسمع جواباً، بل سمعت طرقاً خفيفاً ينبعث من حجرة نومه فاتجهت نحوها، وأجالت بصرها فيها، ثم عادت مرتاعة، وهي تصرخ في رعب شديد، وتقول لنفسها: "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟"

ولم يطل تردها أكثر من دقيقة واحدة، عادت بعدها إلى حجرته، ودقت بابها بلطف، ونادته في حنو ورقة.

وانقطع الطرق حين سمع صوتها، وخرج إليها من فوره، وأخذها يسيران جيئة وذهاباً وقتاً طويلاً، وهي تتحدث إليه حديثاً هادئاً مريحاً.

وقامت في أثناء الليل وهي صامتة، وأطلت عليه في نومه، فوجدته نائماً نوماً عميقاً، ووجدت أدواته الخاصة بصناعة الأحذية وعمله الذي لم يتم كلها كما كانت قبل نومه، وتنفست تنفس من زال عنه عبء ثقيل، وعادت إلى حجرتها وهي تحمد الله على هذه النتيجة.

الفصل التاسع

وكارتن يعمل نفس العمل

وقال مستر استريفير في تلك الليلة نفسها أو في ذلك الصباح نفسه:
"يا سديني. أفرغ لي كأساً أخرى، فإن لدى شيئاً أريد أن أحدثك عنه".

وكان سديني قد ظل عدة ليال يعمل بجد في فرز أوراق استريفير، لأن
المحاكم قد عطلت أعمالها ولن تنظر في قضايا أخرى قبل شهر نوفمبر،
وفرغ من عمله أخيراً ولكن هذا العمل أضناه وأنهك قواه.

ثم قال له استريفير: "والآن استمع إليّ، إني سأحدثك عن شيء
تدهش منه، أي سأتزوج!"

"رباه! وهل أعرفها؟"

"أحزر!"

"لست أريد أن أحزر شيئاً في الساعة الخامسة صباحاً؛ لأن عقلي لا
يطبق ذلك"

"إذن فسأخبرك به إن استطعت أن أفهمك، إنك تعلم أي إنسان
أرق منك عاطفة، وأي رجل يجعل نفسه أكثر - أكثر -".

وأوحى إليه كارتن ببقية العبارة قائلاً: "قل أكثر ظرفاً"

"حسن، سأقول أكثر ظرفاً، أكثر ظرفاً"

في حضرة السيدات، لقد ترددت أنت على منزل الدكتور مانت بقدر ما ترددت أنا عليه، وكنت أخجل من سوء أدبك، إنك رجل فظ يا سديني"

"وتناول سديني جرعة من الخمر وضحك"

وقال استريفير: "انظر إليّ ولما كنت رجلاً ناجحاً في الحياة أصبحت أقل حاجة منك إلى التطرف، فلم أتطرف إذن؟ إني أفعل هذا لأنه من الحكمة، ولأنه وسيلة للنجاح في الحياة!"

"حسن، ومن هي السيدة؟"

إن الفتاة هي الآنسة مانت، فهل توافق على هذا الزواج؟"

فأجابه سديني: "ولم لا أوافق عليه؟"

"إنك تنظر إلى الأمر باهتمام أقل مما كنت أظنك به إليه، أجل يا سديني لقد مللت هذا النوع من الحياة الذي لم أجد نوعاً آخر منها استبدله به، وأنا أشعر الآن أن من ألد الأشياء للرجل أن يكون له بيت يلجأ إليه حين يحس باستعداده للالتجاء إليه، فإذا لم يجد في نفسه ذلك الاستعداد

استطاع أن يظل بعيداً عنه، وأظن أن الآنسة مانت توائمني، فهي فتاة جذابة، وقد اعتزمت أن امتع نفسي، وستجد مني رجلاً ذا ثروة لا بأس بها في الوقت الحاضر، ورجلاً آخذاً في الرقي السريع، ولم لا تتزوج أنت؟ إنك سيصيبك المرض يوماً ما وقد تحتاج وقتئذ إلى من يعني بك".

فأجابه سدني: "سأفكر في هذا الأمر"

ولما كان مستر استريفر قد قرر أن يتزوج، فقد رأى أنه يحسن به أن يبدأ عطلته بالذهاب إلى الآنسة مانت ليفضي إليها بهذا العزم، وكان طريقه يمر بمصرف تلسن، ولما كان يعرف أن مستر لري صديق آل مانت فقد دخل المصرف ليتحدث إليه عن مستقبله الزاهر.

وصاح استريفر بصوت عال: "أهلاً! كيف حالك؟"

وأجابه مستر لري بصوت هادئ ظناً منه أن زائره سيحذو حذوه:
"ماذا أستطيع أن أقدم لك من الخدمات؟"

فرد عليه استريفر وهو يتكئ على المكتب قائلاً: "آه، إنها مسألة خاصة، إني ذاهب لأعرض على الآنسة مانت صديقتك الصغيرة اللطيفة أن تتزوجني"

وصاح مستر لري وهو يمسح ذقنه وينظر إلى زائره بريبة ظاهرة: "آه!
عجباً!"

ووكرر استترف قول صاحبه: "آه! عجباً، يا سيدي ماذا تقصد بقولك هذا؟"

"إن قصدي حسن بطبيعة الحال، ولكنك يا مستر استريف تعرف حقاً- " ثم سكت مستر لري وهز رأسه.

"ماذا تقصد يا سيدي؟ أأنت أهلاً للزواج بها؟ أأنت غنياً؟ أأنت ناجحاً في الحياة؟"

"آه ليس في وسع إنسان أن يشك في ذلك!"

إذن أي شيء على ظهر الأرض تقصده؟"

"الحقيقة أيني ... أذهب أنت الآن إلى هناك؟"

فقال استريف وهو يضرب المكتب بيده: "إلى هناك مباشرة"

"إذن فياني لا أرى أن أذهب معك؟"

"لم؟ قل لي السبب؟"

"لست أريد أن أذهب من غير أن يكون لدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأني سأنجح"

فأجابه استريفر وهو مغضب أشد الغضب: "لقد ذكرت لك ثلاثة أسباب قوية من أسباب النجاح"

"إني حين أذكر النجاح، أقصد النجاح لدى الفتاة".

فقال استريفر وهو يضحك ضحكة الغاضب: "إذن فأنت تشير علي بالأأ أذهب؟"

"لقد هممت أن أقول إنك قد تتألم إذا وجدت أنك أخطأت في معرفة عواطفها نحوك، وأن الدكتور مانت قد يؤلمه أيضاً أن يخبرك بالحقيقة، وأن الأنسة مانت قد تشعر هي الأخرى بالألم من جراء ذلك، ألا ترى إذن أن الأفضل لك أن أحاول أنا معرفة شعورها في هذه المسألة قبل ذهابك إليها؟"

فقال استريفر: "حسن جداً، ولتخبرني بما تقف عليه في أسرع وقت، عم صباحاً"، وخرج مسرعاً من المصرف وقد قرر أن يجد له وسيلة للخلاص من هذا المأزق من غير أن يبدو عليه أنه يعبر المسألة أية أهمية.

ولما جاء مستر لري لزيارة مستر استريفر في مساء ذلك اليوم خيل إليه أنه نسى المسألة.

فقال له مستر لري: "لقد ذهبت إلى المنزل، ولسست أشك في أني كنت على حق فيما تحدثت به إليك في هذا الصباح، ولسست أظن أنك ستفلس مع الأنسة مانت"

فرد عليه مستر استريفير بقوله: هذا ما آسف له من أجلهم، ولننس إذن الأمر كله، فإذا كان العقل ينقصهم فإني قد خرجت من المسألة سليماً، وقد وجدت من قبل فتيات حمقاوات، ولا ضرر مطلقاً فيما حدث، فأنا لم أطلب قط إلى الفتاة أن تتزوجي، وأصدقك القول إني لست متأكداً من أي كنت سأقدم إليها بهذا الطلب، وأشكر لك كل الشكر ما تجشمت من مشقة"

ودهش مستر لري حين سمع هذه الأقوال، فلم يشعر إلا وهو خارج الدار قبل أن يتمكن من جمع شوارد أفكاره، واتخذ طريقه إلى منزله، وهو لا يدري شيئاً عن حقيقة عواطف مستر استريفير"

ولما قابل مستر استريفير سدني كارتن بعد هذه المرة، قال له إنه فكر في أمر زواجه تفكيراً خيراً من تفكيره السابق، ولم يمض بعد هذا اللقاء إلا وقت قصير حتى رحل إلى ديفنشر للتنزه.

أما سدني فبقى في لندن، وذهب يوماً ما في زيارة للوسي مانت، ولم تكن تشعر قط بالراحة الكاملة أثناء وجودها معه، فلما نظرت إلى وجهه في هذه المرة قالت له: "أخشى ألا تكون بصحة جيدة يا مستر كارتن!"

"نعم لست بصحة جيدة، ولكن الحياة التي أحيها ليست هي الحياة التي تحسن بها صحيتي"

"أليس مما يؤسف له ألا تحيا حياة خيراً منها؟ وأرجو ألا يسوئك مني
هذا القول"

ونظرت إليه مرة أخرى فأدهشها وأحزنها أن ترى الدمع يتفرق في
عينيه وأن صوته أيضاً كانت تخنقه العبرات وهو يجيبها عن سؤالها بقوله:
"لقد فات أوان ذلك، ولن أكون في يوم من الأيام أحسن حالاً مما أنا
الآن، بل سأزيد انحطاطاً" وغطى وجهه بيديه.

ولم تكن رأته من قبل قد رق قلبه، ولذلك أثر فيها هذا المنظر كثيراً.

"أرجو أن تصفحي عني يا آنسة مانت، إني ليضايقني علمي بما أريد
أن أفضي لك به، فه تستمعين إليّ؟"

"إن كان ذلك يسعدك يا مستر كارتن فإنه يسني"

بارك الله فيك يا آنسة مانت، لا تخافي أن تستمعي إلي إني أشبه
بإنسان اختصر في شرح الشباب، ولعل حياتي كانت تكون خيراً مما هي،
ولكنها لم يعد فيها متسع لهذا"

"لا يا مستر كارتن، إني واثقة من أن خير أيام حياتك قد تكون في
ذمة المستقبل"، وكانت وهي تقول هذا مصفرة الوجه مرتجفة.

"وحتى لو كنت تستطيعين يا آنسة مانت أن تبادليني حباً بحب، لما كان في وسعي إلا أن ليس في مقدورك أن تحبيني، ولهذا فإنني لا أطلب إليك شيئاً من هذا الحب، بل إنني لأشكر لك عدم حبك إياي"

"وهل في وسعي أن أنجيك مما أنت فيه يا مستر كارتن بغير هذا الحب؟"

"لا! وإذا شئت أن تستمعي إليّ أكثر مما استمعت قليلاً، فإنك تكونين قد فعلت لي كل ما يمكن أن تفعله، أحب أن تعلمي أنك كنت آخر أمل ترتجيه نفسي، وأن منظرك مع أبيك، ومنظر هذا البيت الذي أنشأته، قد أثارا في ذكريات قديمة كنت أظنها انمحت من مخيلتي.

ومذ عرفتك والهموم تتقسمني من جراء حياتي الرهيبة، ثم فكرت في أن أبدأ حياتي من جديد، وكان ذلك كله حلماً، ولكنني أحب أن تعرفي أنك أنت مصدر هذا الحلم".

"ألا يمكن بقاء شيء من هذا الحلم؟ هلا حاولت ذلك يا مستر كارتن مرة أخرى!"

"لا لن تجدي المحاولات، وكل الذي أرجوه أن تسمح لي بأن أحمل معي طوال ما بقي لي من حياتي الشقية تلك الذكرى، وهي أنني فتحت قلبي لك، وأنت كنت آخر من فتحته له في هذا العالم كله، فهل تسمح لي أن أعتقد حين أذكر هذا اليوم أن سري سيظل مكتوماً في قلبك لا يشاركني فيه إنسان؟"

"نعم، إن كان في هذا ما يريح بالك"

"أشكر لك ذلك، وأكرر قولي بارك الله فيك!"

ثم لثم يدها وسار نحو الباب.

وقال: "لن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى بعد الآن، وإذا مت

فسأذكر أن آخر اعتراف لي عن نفسي كان هو اعترافي لك"

ويدا أنه قد تغير كثيراً عن مألوف عاداته، وكان من أشد ما يبعث

الأسى في النفس أن يفكر الإنسان فيما أضاعه من حياته، حتى لقد بكت

لوسي مانت وهو واقف حيث هو وقد التفت لينظر إليها.

"لا تبك فلست جديراً بهذه العواطف، ولن تمضي ساعة أو ساعتان

حتى أكون مع رفاق السوء مرة أخرى، غير أن لي رجاء واحداً هو آخر ما

أرجوه منك، ثم أفارقك بعده، ولست أجهل أي لن أفيد شيئاً من ذكره،

ولكنه رجاء ينبعث من أعماق نفسي، وهذا هو: تقني أي لن أتردد في أن

أؤدي لك ولأي إنسان تعزيتته عملاً أيّاً كان نوعه، وأي لن أضن بأية

تضحية إن كان فيها عون لك ولمن تحبين، واذكري على الدوام فيما سوف

تستقبلين من أيام سعيدة أن على ظهر الأرض رجلاً لا يتردد في أن يضحى

بحياته لتبقي إلى جوارك حياة تحبينها"

ثم قال: "أستودعك الله" وغادر المكان وهو يقول للمرة الأخيرة:

"بارك الله فيك".

الفصل العاشر

معبد الطرق

ظل سكانشارع سانت أنطوان عدة أسابيع ينتظرون أن تصلهم أخبار عن مصير جاسبرد أحد أصدقائهم، وكان رجال الشرطة قد قبضوا عليه، وساقوه إلى القرية التي ارتكب فيها جريمته، وكانوا ينتظرون أن يأتيهم المسيو دفارج بأخباره، وظل كثيرون منهم ساعات طوالاً، ينتظرون في الحانة التي جلست فيها مدام دفارج هادئة صامتة تطرز.

وأخيراً مر في الشارع حوالي الظهر شبهان، بعلوهما العثير، أحدهما صاحب الحانة، وثانيهما معبد للطرق على رأسه قلنسوة زرقاء، وأبصرتهما عيون كثيرة، ولكن أحداً لم يتبعهما حين مرا، ولم يتحدث إنسان إليهما، وهما يدخلان الحانة، وإن كانت أعين الجميع قد اتجهت نحوهما.

وقال مسيو دفارج: "طاب يومكم أيها السادة"

وانطلقت الألسن جميعها على الفور، وأجابته منادية "طاب يومك"،

وقال دفارج وهو يهز رأسه: "إن الجو رديء أيها السادة"

فلما قال هذا نظر كل نسان إلى جاره، وأطرقوا جميعاً بأبصارهم إلى

الأرض، وظلوا صامتين، ثم قام رجل وخرج.

وقال دفارج مخاطباً زوجته: "زوجتي لقد كنت في سفر طويل في صحبة هذا الرجل الطيب معبد الطرق، وهو نعم الزميل، واسمه "جاك" ثم قام رجل ثالث وخرج.

وتناول مسيو دفارج هو الآخر شيئاً من النبيذ أنعش به نفسه، ولم ينظر إلى أحد من الحاضرين، كما أن أحداً منهم لم ينظر إليه، حتى ولا مدام دفارج التي كانت قد عادت إلى عملها وهو التطير.

ثم قال أخيراً: "هل فرغت يا صديقي؟"

"نعم، وأشكرك"

"إذن تعال معي، وسترى الحجرة التي أعدت لك، وستوائمك كل الموائمة"

وخرجا من الحانة إلى الفناء، ثم صعدا درجاً صعبة المرتقى، وصلا بعدها إلى حجرة ضيقة، وهي نفس الحجرة التي جلس فيها من قبل رجل أبيض الشعر يصنع أحذية.

ولم يكن فيها وقتئذ رجل أبيض الشعر، بل كان فيها ثلاثة رجال، وهم عين الثلاثة الذين أطلوا في يوم من الأيام على الرجل الطاعن في السن من خلال ثقب في الباب، وهم نفس الثلاثة الذين خرجوا من الحانة فرادى - الثلاثة الذين يسمون باسم جاك.

وأغلق دفارج الباب بعناية وتحدث بصوت خافت:

"جاك ١، وجاك ٢، وجاك ٣، هذا هو الشاهد الذي قابلته أنا جاك ٤
كما أمرت، وسيخبركم بكل شيء، تكلم يا جاك ٥"

ومسح معبد الطرق وجهه بقلنسوته الزرقاء ثم قال:

"من أية نقطة أبدأ يا سيدي؟"

"ابدأ من أول القصة كلها"

"رأيت جاسبرد أول ما رأيته من نحو سنة تحت عربة المركيز معلقاً فيها
بسلسلة، وكانت العربة تصعد تلاً صعب المرتقى"

وسأله جاك ٣ كيف تعرفت عليه بعدئذ؟

"بطول قامته، فقد أجبني المركيز حين سألتني عن شكله بأنه طويل
كالطيف".

"ولكنه لم يكن قد فعل شيئاً في ذلك الوقت، ثم جرى، وحدث ما
حدث واختفى، وظلوا يبحثون عنه في كل مكان شهوراً لا أعرف عددها
عشرة أو أحد عشر"

وقال دفارج: "لا يهمنا عددها، وقد قبض عليه أخيراً لسوء الحظ،

استمر"

"وكنت مرة أخرى أعمل على سفح التل، فشاهدت ستة جنود مقبلين، وفي وسطهم رجل طويل القامة، ويداه مغلولتان ومشدودتان إلى جانبيه، وكانوا جميعاً يكسوهم العثير، ولما مروا بي عرفت من بينهم الرجل الطويل القامة، ولكنه في هذه المرة لم يستطع أن يجري هارباً على سفح التل وقال كبير الجند: سيروا وعجلوا به إلى قبره، ثم دفعوه على سفح التل إلى القرية في أسفله، ولما سقط على الأرض أقاموه وضحكوا حين رأوا وجهه ملطخاً كله بالدم الذي لم يستطع إزالته، ثم جاءوا به إلى القرية، وخرج منها أهلها جميعاً ليشاهدوه، وساروا في شوارعها مارين بالتل حتى وصلوا إلى السجن، وفتحت أبواب السجن وابتلعتة- وهكذا"

وقال دفارج: "استمر يا جاكه"

"وثامس القرويون جميعاً بجوار الفوارة ثم آوى أهل القرية كلهم إلى مضاجعهم، ورأوا في منامهم ذلك الرجل الشقي الذي شاهدوه فوق التل ثم لم ينزل عنه إلا ليلقي حتفه، وكان في وسعهم أن يروه في الصباح، في حجرة صغيرة، يطل من بين قضبان حديدية، وينظر من خلالها إلى الريف الذي لن يستطيع أن يسير فيه مرة أخرى".

ونظر المستمعون الأربعة بعضهم إلى بعض نظرة الغضب، وكانت الرغبة في الانتقام واضحة في أسارير وجوههم جميعاً، ولكنهم وهم ينصتون إلى معبد الطرق كان يبدو عليهم مظهر القضاة في محكمة".

وقال معبد الطرق: "وظل أربعة أيام، والقرية كلها تنظر إليه، ولكنها لخوفها كانت تنظر إليه سراً، ولما كان أهل القرية على بكرة أبيهم يجتمعون في المساء عند الفوارة، كانت كل وجوههم تتجه نحو السجن، وقال بعضهم إنه لن يقتل، وإن ملتماً قد رفعا إلى الملك، جاء فيه أن الرجل ذهب عقله لموت طفله"

وقال جاك ١: "اسمع أيها الرجل: لقد رفع ملتمس إلى الملك، وكل الذين هنا إلا أنت شاهدوا الملك يأخذ هذا الملتمس، وهو في عربته في الشارع جالس إلى جوار الملكة"

وكان دفارج الجالس معنا هنا هو الذي جرى أمام الخيل، والملمتس في يده وعرض بذلك حيباته للخطر"

وقال جاك ٣: "واعلم أيضاً أن حراس الملك أحاطوا ببه وضربوه"

وقال دفارج: "استمر"

"واستيقظت القرية في صباح يوم اثنين فرأت مشنقة، علوها أربعون قدماً قائمة في الهواء بجوار الفوارة".

وأشار بإصبعه كأنه ي أن يبين ارتفاع المشنقة.

"ووقف دولاب العمل كله في القرية، فلم يخرج أحد بالأبقار، واجتمع أهلها كلهم حول الفوارة. ولما انتصف النهار شمع قع الطبول،

ونزل من السجن يحيط به جماعة من الجند، وهو مقيد كما كان من قبل،
ي فمه قطعة من القماش لتمنعه كلم. وشنق هو على هذه الحال في ذلك
المكان دون أن ينطق بكلمة، وعلا جسمه في الهواء أربعين قدمًا، وترك
هناك معلقًا بجوار الفوارة بشكل مروع. وكيف تستطيع النساء أن ينقلن
الماء؟ وكيف يستطيع الأطفال أن يلعبوا بجوار الفوارة الشيء من فوق
رؤوسهم يلقي ظل في ذلك المكان؟

"لقد كان منظرًا رهيبًا. وخرجتُ من القرية في مساء الأربعاء، ولما
خرجت منها ألقيت عليها نظرة من ورائي، ورأيت ظل المشنقة الطويل
ملقى على الكنيسة وعلى الطاحونة، بل وعلى السجن نفسه. وقابلت
هذا السيد كما أمرت من قبل أن أقابله، وجئت معه إلى هذا المكان،
أمشي تارة، وأركب تارة، وظللت على ذلك طوال أمس، وطوال الليلة
الماضية، وهأنذا بينكم"

وقال جاك الأول بعد صمت طويل: "حسن، لقد كنت أمينًا في
أفعالك وأقوالك؛ فهل لك أن تنتظرنا بعض الوقت خارج الباب؟"

فأجاب معبد الطرق: "سمعًا وطاعة!"، ونهض دفارج وصحبه إلى
أعلى الدرج، ثم عاد.

وقال رقم ١: "ماذا تقول يا جاك؟ هل تضم أسماءهم إلى ثبت
الأسماء؟".

فأجاب دفارح: "نعم إلى ثبت أسماء المهالكين".

وسأل الأول: "القصر، وأسرة إفرمند على بكرة أبيها؟"

وسأل رقم ١: "وهل أنت واثق من أنه لا خوف مطلقاً على ثبت الأسماء؟ نعم إنه مكتوب كتابة سرية، وإن أحداً غيرنا لا يستطيع قراءته، ولكن ماذا تكون الحال لو قبض علينا؟ فهل تستطيع زوجتك أن تقرأه إذا حان الوقت؟".

فأجابه دفارح جواب الواثق: "لا تخف يا جاك. إن زوجتي في غير حاجة إلى الثبوت. فهو إذا ضم إليه اسم نقش هذا الاسم في ذاكرة زوجتي، فهي تردد الاسم لنفسها حين تطرز كل اسم في ذاكرتها. ولن يضيع حرف واحد من أي اسم في الثبوت الذي تطرزه مدام دفارح".

وتحامسوا كلهم بألفاظ الرضا والموافقة، ثم سأل واحد منهم: "وما رأيكم في معيد الطرق؟ هل نعيده سريعاً إلى حيث كان؟ إنه إنسان ساذج جداً، أليس في وجوده بعض الخطر؟"

فأجاب دفارح: "إنه لا يعرف شيئاً، وسأتولى أنا أمره. فهو يرغب في رؤية العالم الجميل، الملك، والملكة، والحاشية. وسيراهم يوم الأحد، ثم أعيده أنا إلى حيث كان".

"ما هذا! هل من الحكمة أن نسمح له برؤية الملك والنبلاء؟"

فقال دفارج: "يا جاك، إنك إن أريت القطة لبناً أحببت أن تلعه،
وإن أريت الكلب أرنباً صاد الكلب الأرنب وقتله يوماً ما".

وكان هذا آخر ما قالوه، وانصرف الرجال بعدئذ.

وبقي معبد الطرق في الحانة عدة أيام. وكانت حياته فيها حياة
جديدة، سارة له، ولكن مدام دفارج كانت تخيفه، فقد كانت تلازم
الصمت، ولا تنقطع عن التطريز، ولا تلقي بالها إلى وجوده، فكان كلما
نظر إليها ارتجف في نعليه الخشبيين. فلما كان يوم الأحد وعلم أنها
ستصحبه هو ودفارج إلى فرساي ليشاهد الملك لم يرتح إلى ذلك مطلقاً.

وأخذت مدام دفارج معها تطريزه كمألوف عادتها، ولم تنقطع عن
التطريز حتى وهي في العربة العامة التي أقلتهم.

وقال أحد الركاب: "إنك يا سيدتي تجهدين نفسك في العمل".

فأجابته السيدة: "نعم وذلك لأن ما لا بد لي من عمله كثير".

"وماذا تعملين يا سيدتي؟".

"أشياء كثيرة".

"مثلاً؟".

فأجابته مدام دفارج بقولها: "أكفان الموتى مثلاً".

وابتعد الرجل عنها بأسرع ما يستطيع. وتضايق معبد الطرق أيضاً من قولها هذا، ولكنه نسي كل شيء حين وقعت عيناه على الملك وعلى مكلته الشقراء في عربتهما الذهبية، يحيط بهما جميع نبلاء البلاط ونبيلاته. وقد بهره هذا الجمع الحاشد من النبيلات الضاحكات والنبلاء ذوي المنظر الأخاذ، والجواهر والثياب الحريرية البراقة، والوجوه المعجبة بنفسها! نسي معبد الطرق كل شيء فخلع قلنسوته ولوح بها وصاح بصوت لا يقل عن صوت أي إنسان: "ليحيى الملك، لتحيى الملكة".

وقال دفارج حين انتهى هذا المشهد كله: "ها! إنك إنسان طيب".

وأخذ معبد الطرق حينئذ يسائل نفسه وهو في حيرة ألم نفسه موضعاً للسخرية؟ لا إنه لم يجعلها كذلك.

وهمس دفارج في أذنه: "إنك أنت الرجل الذي نريده بالضبط، إنك تحمل أولئك البلهاء على الظن بأن هذه الحال ستستمر أبد الدهر، وهذا يسهل لنا عملنا".

ووافق معبد الطرق على هذا.

وواصل دفارج حديثه قائلاً: "إن هؤلاء البلهاء لا يعرفون شيئاً، إنهم يحتقرونكم، ويفكرون في جيادهم وكلاهم أكثر مما يفكرون فيكم، فلنخادعهم فترة أخرى قصيرة، وإن يومنا لآت".

وألقت مدام دفارج على معبد الطرق نظرة فاترة وقالت له:
"استمع يا هذا. إذا أراك أحد سرّباً من الطير عاجزاً عن الطيران، وطلب
إليك أن تقتلع ريشه من أجسامه، فإنك تبدأ باقتلاع أجمل هذا الريش،
ألست تفعل هذا؟".

"بلى يا سيدتي، إن هذا ما أفعله حقاً".

فقال مدام دفارج وهي تلوح بيدها نحو العظماء الذين بعدوا:
"لقد رأيت اليوم طيوراً جميلة، فلتعد الآن إلى منزلك".

الفصل الحادي عشر

الجاسوس

وبينما كان دفارج وزوجته يسران في الوحل الأسود الذي يلطخ الطريق عائدين إلى منزلهما قالت مدام دفارج لزوجها: "ماذا قال لك جاك الشرطي؟".

"لم يقل لي إلا قليلاً جدًّا في هذه الليلة، ولكن كان مما قاله إن جاسوسًا جديدًا سيأتي إلى حي المدينة الذي نقيم فيه".

"آه، حسن! لا بد إذن من أن نضمه إلى ثبت الأسماء فما اسمه؟".

"جون بارساد، وهو إنجليزي".

"حسن، وهل يُعرف شيء عن مظهره؟".

"سنه حوالي أربعين سنة، وطول قامته نحو خمس أقدام وعشر بوصات، وشعره أسود، ووجهه نحيل طويل، وأنفه منحني نحو اليسار".

فقالت السيدة: "واضح جدًّا، وسيضم إلى ثبت الأسماء".

ووصلوا إلى الحانة في منتصف الليل، وعدت مدام دفارج ما تجمع من النقود في أثناء غيابهما، بينما كان زوجها يغدو ويروح في الحانة يدخن

في قصبته. وقد لاحظت رغم انهماكها في عد النقود شيئاً من التعب والحزن باديًا عليه.

فقلت له: "إنك ضعيف القلب في هذه الليلة".

فأجابها بقوله: "نعم بعض الشيء، إن الوقت قد طال".

فقلت في هدوء: "نعم إن الوقت قد طال، ولكن الاستعداد للانتقام يتطلب وقتًا طويلاً، فعلينا أن ننتظر صابرين، ولتذكر أن كل يوم يمر يزيد يوم الانتقام قربًا. انظر حولك إلى ما في العالم من شر وامتعاض، أتظن أن ذانك الشر والامتعاض يستطيعان البقاء؟".

"إنك محقة، ولكن من الجائز ألا تكون خاتمتها في أثناء حياتنا".

"وحتى لو حدث هذا فإننا نكون قد ساهمنا في الوصول إلى هذه الخاتمة، وليس شيء مما نفعله بالذي يذهب أذراج الرياح، وأنا شخصيًا واثقة من أننا سنعيش حتى نشهد النصر".

وكانت مدام دفارج تطرز كعادتها ظهر اليوم الثاني حين دخل الحانة رجل غريب. فلما رآته شكت وردة في شعرها بدبوس، فأمسك معظم من كان في الحانة عن الكلام وأخذوا ينصرفون منها شيئًا فشيئًا.

وقال الرجل الغريب: "طاب يومك يا سيدتي".

فأجابته بصوت عال: "طاب يومك يا سيدي"، ولكنها قالت في نفسها: "ها! سنه حوالي أربعين، وطول قامته حوالي عشر أقدام وتسع، وشعره أسود، ووجهه طويل نحيل، وأنفه منحني إلى اليسار! طاب يومك".

وقال الطارق الجديد بعد أن طلب بعض النبيذ: "إنك تطرزين بمهارة عظيمة".

"لقد تعودت هذا".

"ولأي شيء تفعلين هذا؟".

"لأقتل به الوقت؟".

"وهل العمل طيب؟".

"إن العمل شيء غاية السوء، فالناس في أشد الفقر".

"آه، ما أبأس هؤلاء الناس، إنهم يعاملون أسوأ معاملة كما تقولين".

وصححت مدام دفارج هذا قائلة: "كما تقول أنت".

"عفوًا، لقد كنت أنا الذي قال هذا، لكنك بطبيعة الحال تفكرين في ذلك".

فأجابته مدام دفارج بصوت عال: "أفكر؟ كفايني أنا وزوجي عملاً
أن نحفظ بحياتنا مفتوحة دون أن نفكر في شيء. إن كل ما نفكر فيه هو
كيف نعيش".

وكان هذا الجاسوس قد جاء ليتسقط ما يستطيع أن يحصل عليه
من الأنباء، أو ما يستطيع أن يصطنعه منها، فلم يسمح لما صادفه من
الإخفاق أن يظهر على وجهه، ولكنه واصل حديثه قائلاً:

"إن موضوع جاسبرد المسكين عمل غير صالح!".

فقالت السيدة بهدوء: "إذا رأى الناس أن يستخدموا المدى في
مثل هذه الأغراض، فعليهم أن يلقوا جزاء عملهم".

وقال الجاسوس وقد خفض صوته: "أعتقد أن أهل الجهة المجاورة
لهذا المكان يأسون كلهم أشد الأسي على هذا الإنسان المسكين، وأنهم قد
غضبوا غضباً شديداً لموته".

"أحق هذا؟ آه، ها هو زوجي".

فقال الجاسوس وهو يلمس قبعته: "طاب يومك يا جاك!".

ووقف دفارج فجأة ونظر إليه نظرة فاحصة. وكرر الجاسوس قوله
"طاب يومك يا جاك!"

وقال صاحب الحانة: "إنك مخطئ، فليس هذا اسمي، فأنا إرنست دفارح".

فقال الجاسوس وقد أخفق مرة أخرى: "هذا وذاك سيان، طاب يومك!".

فأجابه دفارح في هدوء: "طاب يومك!".

"كنت في هذه الساعة أقول للسيدة إن الناس في حي سانت أنطوان قد حزنوا وغضبوا كثيراً لما أصاب جاسررد المسكين".

"لم يخبرني أحد بذلك، ولست أعرف شيئاً عن هذا الأمر".

وشرب الجاسوس نبيذه وطلب غيره.

"إن اسمك يا مسيو دفارح يذكرني بسيدك القديم الدكتور مانت، وأظن أنه جاء إليك حين أطلق سراحه".

"هذا صحيح"

"لقد عرفت الدكتور مانت وابنته في لندن، فهل تسمع كثيراً عنهما".

"لا".

"إنها ستتزوج، ولكنها لن تتزوج إنجليزيةً. وعلى ذكر جاسبرد، جاسبرد المسكين أقول لك إن من أعجب الأشياء أنها ستتزوج بابن أخي المركيز الذي قتله جاسبرد، وسيكون زوجها بالطبع هو المركيز الحالي، ولكنه يعيش في لندن معيشة الشخص المجهول، فليس هو فيها مركيزًا بل هو مستر تشارلس دارني واسم أسرة أمه دولنيه، وهو يكتب هذا الاسم على الطريقة الإنجليزية".

ولم يبد على مدام دفارج أنها تأثرت بهذا النبأ أقل تأثر، ولكن زوجها تأثر به، ولم يكن في وسعه أن يمنع اضطراب يده وهو يشعل قصبته تدخينه، وإن حاول أن يتصنع الهدوء التام. ولو أن الجاسوس عجز عن ملاحظة هذا الاضطراب لما استحق أن يكون جاسوسًا.

وبعد أن لقي بارساد آخر الأمر هذا النجاح الوحيد القليل أدى ثمن ما شرب وغادر الحانة. وبقي الزوج وزوجته بعدئذ بضع دقائق بالحالة التي تركهما عليها تمامًا خشية أن يعود.

وقال دفارج بصوت خافت: "هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟".

فأجابته زوجته: "أكبر الظن أنه بالصيغة التي قاله بها غير صحيح، ولكن النبأ في حد ذاته قد يكون صحيحًا".

"إذا كان صحيحًا، وإذا وقعت الواقعة ونحن أحياء، فإني أرجو أن تحول الأقدار بين زوجها وبين المجيء إلى فرنسا".

"إن الأقدار ستسوقه إلى حيث قدر له أن يذهب، وستقوده إلى النهاية التي ينتهي عندها أجله، وذلك كل ما أعرفه".

وكان من عادة مدام دفارج أن تنتقل من مكان إلى مكان في حي سانت أنطوان لتزور النساء اللاتي يطرزن مثلها. ولم يكن يطرزن ما ينفع، ولكن هذا العمل الآلي كان يغنيهن عن المأكل والمشرب، فكانت الأيدي تتحرك بدل أن تتحرك الأفواه. ولو أن الأصابع النحيلة ظلت ساكنة لزاد إحساس البطون بجوعها.

ولما خيم الظلام، كان ظلام من نوع آخر يجيم على فرنسا. فستصهر أجراس الكنائس التي كانت وقتئذ ترسل أصواتها الجميلة في هواء المساء لتُصنع منها مدافع، وسيسكت الموتُ صوتاً كان في تلك الليلة مدوياً قوياً، ولن تلبث النسوة اللاتي كن يطرزن في سانت أنطوان أن يطرزن بجوار شيء لم ينصب بعد، ويحصن الرؤوس التي تتساقط من هذا الشيء — سيطرزن بجوار المقصلة^(١). (الجلوتين).

(١) كانت الجلوتين أو المقصلة آلة لقطع الرؤوس، تتكون من سكين تسقط بين عمودين، واستعملت أول الأمر في إيطاليا عام ١٣٠٠. ونقل الدكتور جلوتين فكرة استخدام هذه الآلة في أيام الثورة الفرنسية. ولم يكن مخترعها، بل الذي اخترعها هو أنطوان لويس، ولذلك كانت تسمى في بادئ الأمر اللويرون.

الفصل الثاني عشر

فرحة وترحة

وجاء يوم زفاف لوسي مانت وتشارلس دارني. وأشرق
شمس الصباح زاهية، ووقف مستر لري ولوسي والآنسة
برس خارج باب الدكتور مانت، بينما كان الدكتور
وتشارلس يتحدثان في داخل حجرتة قبل أن يذهبوا
كلهم إلى الكنيسة بعد قليل.

وبدت العروس بارعة الجمال، ولكم يكن في وسع مستر لري أو
الآنسة برس مهما أعجبا بها أن يتجاوزا في هذا الإعجاب حد الاعتدال.

وقال مستر لري: "هكذا ترين يا عزيزتي أي جئت بك سالمة في
عرض القناة الإنجليزية لهذا الغرض. فقد حملتك طفلة بين ذراعي من سني
كثيرة، ومن واجب مستر تشارلس أن يشكر لي هذا الصنيع. ألا ترين هذا
يا آنسة برس؟".

فأجابته الآنسة برس بقولها: "قول هراء، إنك لم تفعل هذا من
أجله، فليس ثمة إذن ما يجب عليه أن يشكره لك".

وقال مستر لري: "قد تكونين على حق في هذا، ولكن لم تبكين؟".

والحق أن السرور غلب على الآنسة برس حتى تفرق الدمع في عينيها، ولكن شيئاً في خبيثة نفسها كانت تأسف له. لقد كانت تأسف لأن أخاها سليمان الذي كانت تحبه (والذي هجرها من سنين كثيرة ولكنها ما زالت تحبه) كانت تأسف لأن هذا الأخ لم يكن زوج حبيبته لوسي.

وأجبت الآنسة برس بقولها: "لست أبكي، ولكني أرى الدموع تفرق في عينيك أنت".

فرد عليها مستر لري قائلاً: "في عيني أنا؟ هراء. والآن يا عزيزتي لوسي اسمحي لي أن أقبلك وأن أدعو لك بخير قبل أن يخرج تشارلس ويطلب بك ملكاً له".

وفتح باب غرفة الطبيب وخرج منها صاحبها وتشارلس دارني. وكان وجهه أصفر كوجوه الموتى لا أثر للون الأحياء فيه، ولكنه كان هادئ الطبع يبدو عليه المرح. غير أن عين مستر لري الفاحصة لم يخف عليها هذا المظهر. فقد أدرك أن شيئاً ما حدث في داخل الحجرة صدمه صدمة عنيفة.

وأسلم الطبيب ذراعه لابنته، وسار بها نازلاً على الدرج إلى العربة التي استأجرها مستر لري لهذه المناسبة، وتبعهم سائر الجماعة في عربة أخرى، ولم يمض إلا وقت قصير حتى كان تشارلس دارني ولوسي مانت زوجين، وحتى تم قراءتهما في كنيسة قريبة من غير أن يحضر الحفل أحد غريب.

وعادا إلى البيت ليفطرا فيه، وسارت الأمور على أذلالها.

وكان على ذراع لوسي قطع براقه من ماس، أهداها إليها مستر لرى. ولم يمض إلا قليل حتى كانت لوسي تودع أباه؛ وكان فراقها إياه شديد الوقع عليه، فقد كان أول فراق بينهما مذ جاء إلى إنجلترا من فرنسا. ولكنه كان فراقاً لن يطول أمده، لأنه سينضم إليهما بعد أسبوعين، ليقضي ثلاثتهم ما بقي من العطلة ثم يعودوا جميعاً إلى المنزل. وأخيراً رفع ذراعها الملتفتين حول عنقه، وقال: "خذها يا تشارلس، فهي لك".

وسرعان ما كانت يدها تلوح لهم من نافذة العربة، ثم اختفت عن الأنظار، وظل الدكتور مانت، ومستر لرى، والآنسة برس يلوحون هم أيضاً بأيديهم، حتى اختفت العربة عن أنظارهم.

وكان الطبيب مرحاً طروباً، يبذل كل ما في وسعه لكيلا يفسد على ابنته سعادتها؛ وأفلح في هذه المحاولة، ولكن شيئاً ما كان يضايقه؛ ولما وضع يده على رأسه، وأخذ يجول في الغرفة وهو متعب ملول، أعاد هذا المنظر إلى مستر لرى منظر صانع الأحذية العجوز في بيت مسيو دفارج.

ولذلك قال للآنسة برس: "أرى أنه يحسن بنا ألا نتحدث إليه الآن، أو نقلق راحته. ولا بد لي من الذهاب إلى مصرف تلسن، ولكني سأعود بعد قليل، فنأخذه إلى الريف لنتغدى هناك، وسيكون كل شيء على ما يرام.

ومضت ساعتان قبل أن يعود، ولما صعد الدرج، متجهًا نحو غرفة الطبيب استوقفه صوت دقات عالية.

فقال فرعًا: "رحمك اللهم! ما هذا؟"

وخرجت له الأنسة برس ممتعة الوجه، مرتاعة، وصاحت قائلة: "يا للخسارة! يا للخسارة! ماذا نول لعزيزتي لوسي؟ إنه لا يعرفني، وهو الآن يصنع الأحذية".

وقال مستر لري للآنسة برس كل ما يمكنه أن يقوله لها، ليخفف من روعها، ثم دخل حجرة الطبيب، فرأى الدكة قد حولت تجاه الضوء، كما كانت في الحجرة في باريس، وأكب هو برأسه على عمله، وأخذ يعمل فيه بجد عظيم.

"يا دكتور مانت، يا صديقي العزيز، يا دكتور مانت".

ونظر إليه الطبيب لحظة وجيزة، كأنما بعثها الاستفسار والغضب من أن يتحدث إليه متحدث، ثم عاد إلى الانكباب على عمله. ولاحظ مستر لري أنه كان مشغولاً في عمل حذاء، فأخذ حذاء آخر كان ملقى إلى جانبه، وسأله عنه، فأجاب:

"إنه حذاء فتاة تمشي به، وكان يجب أن أفرغ منه من زمن طويل".

"ولكن انظر إليّ يا دكتور مانت".

وصدع بالأمر كأنه قد اعتاد تلقي الأوامر وإطاعتها.

"ألا تذكرني يا صديقي العزيز؟ فكر من جديد. ليس هذا عملك الحقيقي، فكر يا صديقي، فكر!"

ولكن هذا كله لم يجده نفعًا، فقد استمر في عمله، وأبى أن ينسب بنت شفة.

وقرر مستر لري أن يرقبه بعناية، دون أن يبدو عليه أنه يراقبه، وذلك على أمل أن يشفى من نوبته. ولهذا رتب الأمور، بحيث يستطيع الغياب عدة أيام عن المصرف لأول مرة في حياته وأن يعيش في بيت الطبيب.

وقضى اليوم الثاني في حجرة يستطيع وهو فيها أن يشاهد الطبيب في عمله، ولم يحاول أن يتحدث إليه، لأنه وجد أن كل ما لحديثه من أثر هو أن يزيد حاله سوءًا. وأخذ الطبيب ما أعطي من الطعام والشراب، وعمل عملاً متواصلًا طوال النهار، حتى حال الظلام بينه وبين رؤية عمله. ولما وضع عدده إلى جانبه بعد أن لم يعد العمل مستطاعًا، قام مستر لري وقال له بصوت حنون: "أُتخرج؟"

فرفع الطبيب نظره إليه، وأعاد بصوت منخفض قوله: "أُخرج؟"

"نعم تخرج للرياضة معي، ماذا يمنع ذلك؟"

ولم يحاول الطبيب أن يذكر سبباً لعدم رغبته في الخروج، وكل ما فعله أن جلس واتكأ برأسه على يديه؛ وبمرفقيه على ركبتيه، كأنه يحاول أن يجد جواباً عن سؤال مستر لري: "ماذا يمنع ذلك؟" ولكنه لم يقل بعد ذلك شيئاً.

ولما أظلمت الدنيا في مساء اليوم الثاني، سأله مستر لري كما سأله من قبل: "عزيزي الدكتور ألا تخرج؟"

وأعاد الطبيب قوله: "أخرج؟"

"نعم تخرج للرياضة معي، وما الذي يمنع ذلك؟"

ولما أرى أن يجب هذه المرة، قام مستر لري وتظاهر بأنه خارج وحده، ولكنه لم يفعل أكثر من الذهاب إلى الحجرة المجاورة لحجرة الطبيب، حيث يستطيع أن يشاهد ما يحدث، فرأى الطبيب يقوم، ويذهب إلى النافذة ويطل منها لحظة، فلما أحس بعودة مستر لري عاد إلى دكته.

وأقام مستر لري في المنزل تسعة أيام. وكان وقتاً ما أشقه على نفسه؛ ذلك أنه لن يمضي إلا وقت قليل حتى لا يكون في الإمكان إخفاء السر عن لوسي أكثر ما أخفى عنها، ولن تغفر هي لنفسها هذه الغيبة. وأخذت يدا الطبيب تحذقان عمله القديم حذقاً يبعث الرهبة في النفس، بعد أن تعودتا هذا العمل من جديد. وفي اليوم التاسع غلب النعاس مستر لري، بعد أن هدت الرقابة قواه، فاستغرق في النوم على كرسيه طوال الليل.

وأيقظه من نومه ضياء الشمس يدخل من النافذة. ودهش حين لم يجد نفسه في الفراش، فقام وذهب إلى حجرة الطبيب وأطل فيها، وما كان أعظم دهشته حين أبصر الطبيب يقرأ بجوار النافذة، وراه مرتدياً ثيابه كمألوف عادته، وقد أبعدت الدكة وأدوات العمل عن مكانهما.

وذهب مستر لري في صمت وسكون وعرض الأمر على الآنسة برس؛ وقررا ألا يذكرنا للطبيب شيئاً، وأن ينتظرا حتى يأتي موعد الفطور، ثم يحيياه كأن شيئاً لم يحدث قط.

وفعلا هذا، فاستدعيا الطبيب كمألوف عادتهما، وجاء هو لتناول الفطور، ولم يتحدثا في أثناء ذلك عن شيء خاص، ولكنهما حين ذكرا مصادفة اسم ذلك اليوم من أيام الأسبوع وتاريخه شاهدا أنه قد بدأ يعد الأيام، ويبدو عليه القلق. ومن ثم قرر لري أن يستشير في الأمر طبيباً، وكان الشخص الذي قرر أن يستشير هو الدكتور نفسه.

فلما أن رفعت أدوات الفطور بدأ مستر لري حديثه في عطف، فقال: "عزيزي الدكتور، إني شديد الرغبة في أن أستشيرك في حالة خطيرة جداً تهمني، وهي حالة صديق لي عزيز، فأحسن النصح. أحسن النصح لي إكراماً له، وإكراماً لابنته".

وقال له الطبيب بنغمة منخفضة: "اذكر لي جميع التفاصيل".

فقال مستر لري: "حدثت لهذا الصديق من زمن بعيد صدمة قوية، أثرت في عقله. وهو لا يعرف كم من الزمن بقي على هذه الحال، ولكنه شفي منها بعد زمن ما، وإن كان لا يعرف سبب شفائه منها بالضبط. وكان من سوء حظه أن عاد إليه مرضه من زمن قريب".

وسأله الطبيب: "وكم من الزمن قضى فيه في المرة الأخيرة؟"

"تسعة أيام، وتسع ليال".

"وهل عرفت بذلك ابنته؟"

"لا لم تعرف؛ وأرجو ألا تعرف قط. لقد أخفى الأمر عنها، ولم يعرفه أحد إلا أنا، وإنسان آخر يوثق به".

وأمسك الطبيب بيده، وتمتم قائلاً: "لقد كان ذلك فضلاً منك، شكراً لك"

وأمسك مستر لري هو الآخر بيد الطبيب وظل كلاهما صامتاً وقتاً ما.

"والآن قل لي يا عزيزي الدكتور، إني من رجال الأعمال، وليس في مقدوري أن أعالج مثل هذه الأمور العلاج الناجع، ولهذا فإني في حاجة إلى نصح سديد، وأنا ألتجأ إليك لتهديني إلى ما يجب عمله. فقل لي كيف حدث المرض؟ وهل يخشى أن يعود؟ وإذا عاد، فكيف يجب أن يعالج؟".

وجلس الطبيب يفكر بعض الوقت.

ثم قال: "أظن أن صديقك ربما خاف أن يعود المرض. وكان هذا الخوف شديدًا جدًا، كان هذا الخوف شديدًا إلى حد عجز معه عن ذكره لأي إنسان آخر".

وسأله مستر لري قائلاً: "والآن قل لي ماذا كان سبب عودته في ظنك؟"

فأجابه بقوله: "أعتقد أن سببه أنه تذكر فجأة الحادث الذي كان شبيهاً في مرضه الأول".

"والآن فلننتقل إلى المستقبل"

فأجاب الطبيب بقوة: "أما عن المستقبل فأنا قوي الأمل فيه، فقد شفي المرض بسرعة، وهذا يبعث الأمل في النفس قوياً، ولن يصاب به مرة أخرى؛ لأن ما كان يخشاه قد وقع بالفعل. وقد مرت أسوأ الأحوال وانقضت".

"حسن، ونحن... إن ذلك يريح بالنا كثيراً، وأنا شاكر لك هذا"

وردد الطبيب قوله، وهو يحيي رأسه اعترافاً بفضل الله عليه "وأنا أيضاً شاكر".

وبهذا انتهى الأمر، وخرجوا جميعًا إلى الريف، وقضوا فيه يومًا سارًا ممتعًا. وشفي الطبيب، واستعاد صحته، وظل خلال الثلاثة أيام التالية على أحسن حال. وسافر في اليوم الرابع عشر، لينضم إلى لوسي وزوجها.

وذهب مستر لري إلى حجرته، في مساء اليوم الذي غادر فيه الطبيب البيت، ومعه بعض أدوات النجارة. وانبعثت من داخل الحجره أصوات نشر الخشب ودقه، وأعقب ذلك نقل قطع كبيرة منه إلى الموقد، وألقى الخشب في النار، وأخذ اللهب يرتفع عاليًا، وألقيت عليه بعد الخشب أحذية لم يتم صنعها وقطع من الجلد؛ وسرعان ما كانت هذه الأشياء أيضًا تحترق احتراقًا تطرب له النفس.

ثم احتفر مستر لري حفرة في الحديقة، وألقت فيها الآنسة برس أدوات مختلفة الأنواع.

ولم يبق وقتئذ شيء من آثار صانع الأحذية الذي كان في باريس.

الفصل الثالث عشر

ثورة

ولما عادت لوسي هي وزوجها إلى المنزل كان سدني كارتن أول من زارهما فيه؛ وداوم على زيارتهما، وإن لم تكن هذه الزيارات كثيرة، فقد كان يأتي إليهما نحو ست مرات في كل عام. وترددت في البيت على مر الزمن أيضًا أصوات جميلة مرحة، هي أصوات ضحكة طفلة، ولوحظ أن لوسي الصغيرة كان يبدو عليها أنها تحب سدني كارتن كلما جاء لزيارة أصدقائه.

وكان ثمة زائر آخر أكثر ترددًا على هذه الدار من كارتن وهو مستر لري. جاء من مصرف تلسن ذات ليلة، في منتصف شهر يولييه من عام ١٧٨٩، بعد أن انقضى شطر كبير من الليل، وجلس إلى جوار لوسي وزوجها عند النافذة المظلمة.

وبدأ حديثه قائلاً: "لقد بدأت أظن أن من واجبي أن أقضي الليلة في مصرف تلسن. لقد كانت لدينا أعمال كثيرة طوال النهار، حتى لم نكن نعرف بأيها نبدأ. إن القلق يسود باريس، وأهلها يعهدون إلينا بأموالهم ويرسلونها إلى إنجلترا بأسرع ما يستطيعون".

وقال داريني: "إن هذا ينذر بالشر"

"نعم ولكننا لا نعرف لذلك سببًا. أين مانت؟".

فأجابه الطبيب وكان قد دخل الحجرة في تلك اللحظة:

"ها هو ذا، هل لك أن تلاعبني الورق؟".

"لست أظن أنني سألاعبك الليلة فلست أقدر على اللعب من

فرط التعب، ولكني سأتناول بعض الشاي إذا جاءني لوسي بشيء منه".

فأجابته لوسي: "بطبيعة الحال".

"شكرًا لك يا عزيزتي، وهل الطفلة آمنة ونائمة في فراشها؟".

"نعم، وهي مستغرقة في النوم".

"هذا حسن، كل شيء آمن على ما يرام، ولست أدري لم لا يكون

كل شيء هنا آمنًا حسنًا على ما يرام، الحمد لله. ولكنني كنت طوال اليوم

متعبًا حتى أمسيت على خلاف عادتي، فلست شابًا كما كنت! الشاي يا

عزيزتي. شكرًا لك. والآن فلنجلس هادئين ولنتحدث".

وفي ذلك اليوم علت بعيدًا عنهم في سانت أنطوان صرخة عظيمة

خرجت من حناجر الشعب، وتعاركت في الهواء أيكمة من الأذرع العارية

كأنها أغصان أشجار هبت عليها ريح الشتاء. وكانت جميع أصابع هذه

الأذرع تقبض على أسلحة من بنادق وقضبان من الخشب والحديد، وسكاكين وفؤوس، وكل ما يصلح لأن يكون سلاحًا. وأخذ من لم يستطيعوا من الناس أن يحصلوا على شيء منها يقتلعون الحجارة واللبنات من أماكنها في الجدران بأصابعهم الدامية. وكان مركز هذا الجمع الصاحب هو حالة دفارج، ففي هذا المكان أخذ دفارج وقد علتة الأقدار من البارود والعرق يوزع الأسلحة ويصدر الأوامر.

وصاح قائلاً: "اقترب مني يا جاك ٣، وأنتما يا جاك ١، ٢ افترقا وترأسا أكثر من تستطيعان من هؤلاء الوطنيين. أين زوجتي؟".

فأجابته زوجته وهي هادئة كما كانت من قبل، ولكنها لم تكن تطرز في ذلك اليوم: "هأنذا، أنا سائرة معك الآن، ولكنك ستراني في وقت قريب أقود النساء".

وصاد دفارج قائلاً: "تعالوا معي إذن أيها الأصدقاء وأيها الوطنيون، نحن مستعدون، هيا إلى الباستيل!".

وتحرك هذا البحر اللجب من الأحياء، موجة في إثر موجة، متجهًا إلى تلك البقعة حتى فاضت به المدينة. وسرعان ما علا الدخان واللهب حتى غطى جدران السجن الحجرية السمكية، وأبراجه الثمانية الشامخة. وكان دفارج يعمل وسط النيران والدخان ويصيح: "اعملوا، أيها الرفاق اعملوا!" "يا جاك ١، ويا جاك ٢، يا جاك ١٠٠٠، ويا جاك ٢٥٠٠٠".

وصاحت زوجته قائلة: "تعالين إليّ، إن في وسعنا أن نقتل كما يقتل الرجال حين يؤخذ المكان". وجاءتها النساء وبأيديهن أسلحة مختلفة الأنواع، ولكنهن كلهن مسلحات على السواء بسلاح الجوع والانتقام.

ورفعت فجأة راية بيضاء داخل الباستيل، ودفعت الجماهير دفارج فجأة إلى داخل القلعة المستسلمة. ولم يجد متسعاً من الوقت يتنفس فيه أو يدير فيه رأسه حتى ألقى نفسه في الفناء الخارجي، وقد علا اللجب والصراخ والهتاف في كل مكان.

"المساجين!"

"السجلات!"

"القسم السري!"

وقبضت الجماهير على ضباط السجن، وأنذرتهم بالموت العاجل إن لم يسيروا بهم من فورهم إلى كل قسم من أقسام السجن السرية، وقبض دفارج نفسه على واحد منهم.

وقال دفارج: "دلني على البرج الشمالي! أسرع!"

فأجابته الرجل: "سأدلك عليه في أمانة وإخلاص إذا جئت معي إليه، ولكنه ليس فيه أحد".

"وما معنى رقم ١٠٥ في البرج الشمالي؟".

"إن هذا رقم حجرة".

"دلني عليها".

"إذن فسر في هذه الجهة".

وسار دفارح ومعه جاك ٣ يقودهما ضابط السجن مخترقين ردهات حجرية مظلمة لم ينرها قط ضوء النهار، مارين بحجرات صغيرة مظلمة، وأقفاص ذوات أبواب قبيحة المنظر. ونزلوا على درج من الحجر رطبة. وسرعان ما سكتت أصوات الجماهير الصاخبة إذ حجبتها الجدران السميقة.

ووقف الرجل عند باب منخفض، وأدخل في القفص مفتاحًا، ودفع الباب ببطء فانفتح.

"رقم ١٠٥ في البرج الشمالي!".

وكان في الجزء العلوي من جدار الحجرة نافذة صغيرة ذات قضبان مستعرضة، ولكنها خالية من الزجاج، وفيها مدخنة صغيرة ذات قضبان كثيرة هي الأخرى، وفي داخلها مقعد خشبي صغير ومنضدة و فراش من القش. وكان لها جدران أربعة مسودة في واحدة منها حلقة من حديد يعلوها الصدأ.

وقال دفارج: "تنقل بالنور على طول هذه الجدران حتى أراها".

وصدع الرجل بما أمر به.

"قف! انظر هنا يا جاك!".

وقرأ جاك "ا. م.".

وهمس دفارج في أذنه: "ألكسندر مانت، وقد كتب هنا: طيب مسكين. أعطني هذا القضيبي الحديدي!".

والتفت إلى المقعد الخشبي والمنضدة وهشمها تهميماً بضربات قليلة.

"أنعم النظر يا جاك فيما بين الشظايا الصغيرة، وانظر ماذا ترى؟
وها هي ذي سكينتي، فحرق بما هذا الفراش وفتش في القش. واعل
بالضوء يا هذا!".

وبحث دفارج نفسه المدخنة، وأنزل عنها بعض الأقدار والتراب،
وأخذ يبحث بأصابعه في المدخنة نفسها وفيما كان أسفلها من رماد
الخشب القديم".

"أليس في الخشب أو في القش شيء يا جاك؟".

"لا شيء".

"فلنجمعها ونحرقهما. أشعلهما يا هذا!."

وأشعل الرجل النار في الكومة الصغيرة، وتركوها تحترق، وخرجوا من الباب المنخفض مرة أخرى، فعادوا إلى الفناء وإلى الضجيج.

وكانت الجماهير قد قبضت على مدير السجن وأخذت تسوقه إلى المحكمة؛ وسارت مدام دفارج إلى جانبه، ولما أبصرت زوجها نادته، وظلت إلى جانب المدير المسكين والجماهير تسوقه. ولما جاءتته ضربة من خلفه وسقط على الأرض ميتاً وطأت عنقه بقدمها وفصلت رأسه عن جسده.

هكذا بدأت الثورة وهكذا ظلت مستمرة، وحل يوم سانت أنطوان وسانت أنطوان غاضب، وشنقوا الرجال في أعمدة المصابيح القائمة في الشوارع، وأطلقوا سراح المسجونين في الباستيل وحملوا هؤلاء الرجال المندهبين على أكتافهم وطاقوا بهم الشوارع. وقد خلت قلوبهم كلها من الرحمة في أثناء هذه الأعمال كلها، لأن هذه القلوب قد اكتوت بنيران العذاب فقست حتى لم تجد الرحمة إليها سبيلاً.

الفصل الرابع عشر

خاتمة القصر

كانت القرية التي قتل فيها جاسبرد قرية فقيرة، يحيط بها ريف مخرب كل ما فيه يبدو منهوگا ضعيفًا - من خيل وأثوار وحيوان ورجال ونساء وأطفال، بل والأرض نفسها التي يستمد منها هؤلاء أسباب حياتهم.

وظلت أسرة المركيز المتوفى سنين كثيرة تنتزع المال من هذا الريف على يد أناس أمثال المسيو جابل جامع الضرائب، حتى لم يبق فيه في الوقت الذي نتحدث عنه ما يمكن أن ينتزع، بل إنه لم يكد يُخرج ما يكفي لمعيشة الخلائق البائسين الذين يعيشون فيه. ولم تتغير أحوال الناس عما كانت عليه، وإن كان المركيز قد مات. وقد انضم إلى أهل القرية بعض الغرباء يعيشون فيها، وكان عمل هؤلاء الغرباء هو تلقين أهلها أفكارًا جديدة وقيادتهم حين بدأت هذه الأفكار الجديدة تخرج إلى حيز العمل.

وظل السجن القائم على التل والذي سيق منه جاسبرد إلى ساحة الإعدام باقيًا على حاله لم يتغير، لا يزال الجند فيه وعلى رأسهم ضابطهم، ولكن أحدًا من هؤلاء الضباط لم يكن يدري ما سوف يفعله جنوده، وكل الذي يعرفونه أنهم في أغلب الظن لن يفعلوا ما يؤمرون به. ذلك أن الآراء

الجديدة انتشرت من باريس إلى المدن، ومن المدن إلى القرى، وأخذت وقتئذ تنتشر بين الجنود.

وكان معبد الطرق لا يزال دائماً على القيام بعمله، وإن لم يكن يعطى من الأجر على كدحه ما يقوم بأوده. وكثيراً ما كان يمر به وهو قائم بعمله غرباء، خشنو الهيئة، يمشون على أقدامهم، في أخفاف خشبية، وبأيديهم أسلحة. وكان هؤلاء الغرباء ينشرون الآراء الجديدة في طول البلاد وعرضها، وينفذون الأوامر التي يصدرها إليهم زعماء الثورة في باريس.

واقترب واحد من هؤلاء الغرباء من معبد الطرق في يوم من أيام شهر يولييه، وهو في الطريق الصاعد على التل في خارج القرية. ونظر الرجل إلى معبد الطرق، وإلى القرية في أسفل التل، وإلى الكنيسة، وإلى السجن القائم وراءها، ولاح عليه أنه وجد ضالته.

وقال: "كيف تسير الأمور يا جاك؟"

"إن الأمور كلها سائرة على أذلالها يا جاك"

وجلس الرجل على كومة من الحجارة.

"أليس عندك غداء؟"

فأجاب معبد الطرق: "ليس عندنا الآن إلا العشاء الخفيف".

وقال الرجل: "هذه هي الحال في كل مكان، إني حيثما سرت
قابلت خلائق لم يتناولوا الغداء".

وأخرج من جيبه قصبه تدخين مسودة وملاها وأشعلها، وأخذ
يدخن فيها حتى توهج الطباق واحمر، ثم أخرجها من فمه ووضع فيها شيئاً
خرج منه لهب قليل ثم انطفأ.

وأدرك معبد الطرق في هذا العمل إشارة كان يترقبها.

فسأل معبد الطرق: "أفي هذه الليلة؟"

"في هذه الليلة؛ وسيقابلني الآخرون هنا. فأين المكان؟"

"على الطريق؛ وعلى بعد خمسة أميال في داخل القرية"

"حسن؛ ومتى تنتهي من عملك؟"

"وقت الغروب"

"هل لك أن توقظني قبل أن تترك المكان؟ لقد ظللت ماشياً ليلتين

لم أسترح فيهما؛ دعني أفرغ من تدخين قصبتي ثم أنام كما ينام الطفل، ولا
تنس أن توقظني".

وفرح الرجل الغريب من تدخين قصبته، وأخرجها من فمه، وخلع خفيه الخشيبين الكبيرتين، واستلقى على ظهره فوق كومة الحجارة، واستغرق في النوم من فوره.

وظل نائمًا طوال عجز النهار؛ حتى إذا انحدرت الشمس إلى الأفق في الجهة الغربية، واحمرت السماء، جمع معبد الطرق أدواته، وأيقظ صاحبه من نومه.

وقال النائم وقد قام متكئًا على مرفقه: "حسن؛ أهو على بعد خمسة أميال بعد القرية؟"

"نحو ذلك"

ونزل معبد الطرق إلى القرية ووصل بعد قليل إلى الفوارة، حيث جاء الأهلون بالماشية العجاف لتستقي. وهمس في آذان بعض القرويين، وهمس هؤلاء في آذان غيرهم، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى كان أهل القرية قد عادوا إلى الخروج من بيوتهم بعد أن تناولوا عشاءهم الحقير، ولم يأووا إلى فراشهم كعادتهم، بل بقوا في خارج البيوت، يتهامسون حول الفوارة. وكانوا وهم يتهامسون يتجهون جميعًا بأعينهم نحو السماء، ولكنهم يتجهون إليها في ناحية واحدة لا غير.

وقلق مسيو جابل، فصعد إلى سطح بيته، ونظر هو أيضاً في هذا الاتجاه. وأرسل رسولاً إلى الرجل الذي يحتفظ بمفاتيح الكنيسة يخبره أنه قد يكون في حاجة إلى دق أجراسها بعد قليل.

واشتد الظلام، وهبت الريح، وتمايلت الأشجار التي كانت تحيط بالقصر القديم، كأنها حارسة له، وأمالت الريح رؤوسها نحو البناء الضخم واتخذت أشباح أربعة خشنة الهيئة طريقها خلال الأشجار حتى وصلت إلى الفناء. وظهرت أضواء أربعة ثم تفرقت، واتجه كل منها في ناحية غير التي اتجه إليها الآخر. ثم ساد الظلام مرة أخرى.

لكن هذا لم يدم طويلاً، فلم يلبث القصر أن سطع خلال ظلام الليل بأضواء غريبة خارجة منه نفسه. فتوهجت النوافذ، وعلا الدخان، وارتفع اللهب إلى عنان السماء، وازداد اتساعاً وبريقاً، وما هي إلا برهة وجيزة حتى برزت واجهة القصر كلها ساطعة في وسط معمعة النيران المتقدة.

ورأى من في القرية بريق النيران، وبعد قليل ظهر فارس من وسط الظلام ووقف عند باب مسيو جابل.

"المعونة يا جابل! المعونة يا أهل القرية جميعاً!"

ودقت أجراس الكنيسة تدعو الناس إلى الاجتماع، ولكن أحدًا منهم لم يتحرك؛ ووقف معبد الطرق ومعه مائتان من خاصة أصدقائه مطوي الذراعين بجوار الفوارة، ينظر إلى عمود النار المرتفع في الهواء.

وقال واحد منهم وهو يضحك: "ما من شك في أنه لا يقل عن أربعين قدمًا"، ولم يتحرك أحد.

وسار الفارس من القصر، واخترق القرية، وصعد التل إلى السجن، ورأى عند مدخله جماعة من الضباط ينظرون إلى النيران، وعلى مسافة قليلة منهم طائفة كبيرة من الجنود يفعلون ما يفعله الضباط، ونادى الفارس قائلاً:

"المعونة أيها الرجال؛ إن القصر يحترق! ولا يزال في الإمكان إنقاذ أشياء قيمة من النيران. المعونة! المعونة!"

ونظر الضباط إلى الجنود، ونظر الجنود إلى النيران، ولم يصدر الضباط أوامر لعلمهم أن أوامرهم لن تطاع، وأجابوا قائلين: "يجب أن يحترق".

وترك القصر طعمه للهب، وهبت الرياح على النار فزادتها ضرامًا، وسرعان ما انهارت كتل كبيرة من الحجارة والخشب، وامتدت الحرارة إلى أقرب الأشجار من القصر، فتساقطت أوراقها، وبدأ الدخان يخرج منها، وحامت حولها طيور كثيرة، فلما غلبتها على أمرها شدة الحرارة وكثرة

الدخان هوت في أتون النيران. وسار في ظلمة الليل أربعة رجال وابتعدوا عن هذا المنظر إلى شماله وجنوبه وشرقه وغربه، وقصد كل منهم إلى قصر غير هذا القصر. وعادت نواقيس كنيسة القرية تدق من جديد، ولكنها في هذه المرة لم تكن تدق لتنبه أهلها إلى الخطر، بل كانت تدق دقات الفرح والسرور.

ولم يكن هذا كل ما حدث. فقد ثارت نائرة القرويين من دق الأجراس ومن الجوع، وتذكروا أن مسيو جابل هو الذي كان يجمع إيجار الأرض والضرائب المفروضة عليها، وإن لم يكن يجمع من هذا الإيجار ومن تلك الضرائب في تلك الأيام القريبة إلا القليل الذي لا يغني، فأحاطوا ببيته وأخذوا يصيحون يطلبون إليه أن يخرج إليهم. فلما رأى ذلك أغلق بابه، وأحكم إغلاقه بقضبان ثقيلة، وآوى إلى سطح الدار واختفى خلف المداخن. وكان رجلاً شجاعاً، فقرر إذا اقتحموا الباب عليه أن يلقي نفسه من سطح الدار، فيهوى بأم رأسه في وسطهم، ويأخذ معه بهذه الوسيلة واحداً منهم أو اثنين إلى الدار الآخرة.

ولكن ثورة القرويين هدأت، ولما ظهرت في السماء تباشير النهار عاد الناس إلى بيوتهم. وخرج مسيو جابل من داره مرة أخرى؛ وحمد الله على أنه لا يزال بين الأحياء.

ولم يؤت غير مسيو جابل من الموظفين في غير هذه القرية ما أوتي هو من حسن الحظ في تلك الليلة وغيرها من الليالي، فقد شوهوا في

الصباح معلقين على الأشجار في غابات كانت من قبل آمنة مطمئنة.
وهاجم الجند الأهليين في بعض القرى وشنقوا قليلاً منهم، كما فعل هؤلاء
بهم، ولكن النيران كانت تشتعل حيثما ذهب الرجال الأربعة، وفي شمال
البلاد وجنوبها وشرقها وغربها، وانتشر الرعب في كل مكان في أثناء الليل.

الفصل الخامس عشر

العمل في باريس

كان ملتقى النبلاء الذين فروا من فرنسا هو مصرف تلسن بطبيعة الحال. فقد كان الذين أوتوا من بعد النظر ما جعلهم يرسلون أموالهم إلى إنجلترا قبل نشوب الثورة يذهبون إلى المصرف لإنجاز أعمالهم، وأما الذين لم يفعلوا هذا فقد جاءوا إليه رجاء أن يلتقوا بأصدقائهم القدامى الذين قد يستطيعون أن يساعدوهم على الخروج من الضائقة التي كانوا فيها، ويرضون بتقديم هذه المساعدة لهم. وبذلك أصبح مصرف تلسن المركز الذي يستطيع الإنسان أن يعرف منه آخر أبناء فرنسا. وعرف الجمهور هذا حق المعرفة، فكان يقوم بكثير من التحري هناك. ولهذا كانت الأبناء في بعض الأحيان تكتب وتوضع في نافذة المصرف ليراها كل من يريد.

وجلس مستر لري إلى مكتبه في عصر أحد الأيام قبيل إقفال المصرف بنصف ساعة، ووقف تشارلس دارني متكئاً على المكتب، يتحدث إليه بصوت منخفض.

وقال له مستر لري: "أتظن أي بلغت من كبر السن مبلغاً يعني أن اذهب إلى باريس؟"

"إن اضطراب الجو، وطول الطريق، وعدم الاطمئنان إلى وسائل السفر، وما عساه أن يكون في المدينة من خطر..."

"إن فيها من الأمن ما يكفيني يا عزيزي تشارلس، فلن يؤدي أحد شيئًا قارب على التسعين إذا وُجد غيره كثيرون يمكن أن يوجه الأذى إليهم. يضاف إلى هذا أن الضرورة تقضي بوجود انتقال إنسان من مصرفنا هنا إلى مصرفنا هناك، إنسان يعرف المدينة ويعرف العمل. ولهذا يجب عليّ أن أذهب قِيامًا بالواجب عليّ نحو مصرف تلسن بعد هذه السنين كلها".

وقال دارني كأنما هو إنسان يفكر بصوت عال:

"ليتني أذهب أنا بنفسني"

"أجل! إنك تتمنى أن لو ذهبت أنت نفسك؛ ولكنك فرنسي!"

"عزيزي مستر لري؛ إن جنسيتي الفرنسية التي أوحث إليّ مرارًا بهذه الفكرة. إني أفكر أحيانًا في أنه قد يكون في وسعي أن أقنع الناس بأن يراعوا بعض الاعتدال في أعمالهم"

"وما رأيك في لوسي؟ لست ادري كيف لا تستحي حين تتمنى أن تذهب إلى فرنسا!"

فقال داريني وهو يبتسم: "فليكن، لست ذاهبًا إلى فرنسا، ولكنك أنت تقول إنك ذاهب إليها"

"نعم إني ذاهب حقًا. إنك لا تستطيع يا تشارلس أن تتصور ما نلقاه من الصعاب في القيام بالعمل في الوقت الحاضر، وما تتعرض له دفاترنا وأوراقنا من الخطر في فرنسا، فقد تنهب أو تتلف في أية لحظة، وإذا ذهبت فقد يكون في وسعي أن أنقذ بعض ما هو أكثر أهمية من غيره من هذه الدفاتر والأوراق، أو أن ادفنها في مكان ما، أو أنقذها من الخطر بطريقة أخرى غير هذه وتلك. وقل أن يوجد إنسان غيري يستطيع القيام بهذه المهمة، فهل يجوز إذن أن أتردد؟"

"ما أشد إعجابي بك! إذن فأنت ذاهب حقًا في هذه الليلة؟"

"الليلة، ويجب ألا ننتظر بعد الآن"

"وهل تأخذ معك أحدًا؟"

"إني أعزم أجد جري معي، فسيعني هو بي؛ وإذا ما أدت هذه المهمة الصغيرة فقد أقبل ما عرضه عليّ مصرف تلسن فأتقاعد وأستريح من العمل".

وجرى هذا الحديث عند مكتب مستر لري المؤلف، وكان يقف إلى جوار المكتب كثيرون من النبلاء الفرنسيين الذين جاءوا إلى المصرف لبعض شئوئهم؛ ووقف بينهم أيضًا مستر استريفير يشرح الطريقة التي ينسف

بها جميع أهل فرنسا نسفًا، ويمحوهم كلهم عن وجه الأرض. وكان دارني يستمع إلى كل ما يقوله وهو غير مرتاح. وأقبل مدير المصرف في تلك اللحظة ووضع أمام مستر لري رسالة قدرة مقفلة، وسأله هل عثر بعد على أثر ما للرجل المرسله إليه.

ووضعت الرسالة قريبة جدًا من دارني حتى استطاع أن يرى ما كتب على غلافها وهو: "عاجل جدًا". إلى سانت إفريند المركزي الفرنسي السابق، بطرف السادة تلسن وشركائه، أصحاب مصرف تلسن، لندن إنجلترا".

وكان دكتور مانت قد رجا دارني في صباح يوم زواجه ألا يخبر أحدًا غيره باسمه الحقيقي إلا إذا وافق هو قبل على ذلك، ولهذا لم يكن أحد غير الطبيب، حتى ولا زوجته نفسها ولا مستر لري، يعرف اسمه الحقيقي".

وقال مستر لري جوابًا عن سؤال مدير المصرف: "لا، لقد سألت كل إنسان هنا، ولكني لم أجد أحدًا يستطيع أن يخبرني أين يوجد هذا الرجل".

وأمسك بهذه الرسالة حتى يستطيع أن يراها من كانوا واقفين بالقرب منه.

وقال واحد منهم: "أظنه ابن أخ المركزي الذي قتل. ويسرني أن أقول إنني لم أعرفه قط في يوم من الأيام".

وقال رجل آخر: "هو الجبان الذي ترك مركزه".

وقال ثالث: "وهو رجل تأثر بالأفكار الحديثة، وقاوم المركيز الذي كان قبله، ثم ترك أملاكه تحت رحمة الشعب".

وصاح استريفر قائلاً: "ماذا تقول؟ أهو من هذا الصنف من الناس؟ اسمح لي بأن أرى اسم هذا الجبان".

ولم يكن في وسع دارني أن يظل صامتاً أكثر مما صمت فقال: "إني أعرف هذا الشخص".

فسأله استريفر قائلاً: "أتعرفه؟ يؤسفني أن أسمع هذا، خير لك ألا عرف أمثال هذا الرجل، فهو جبان، وإذا كان رجلاً مهذباً فيني لا أستطيع أن أفهم عمله هذا، وفي وسعك أن تنقل لي هذا عنه، وفي وسعك أن تنقل له عني أيضاً أي مندهش لأنه لا يرأس الثوار إن كان قد ترك أملاكه لهم. ولكنه لا يفعل، لا يفعل بطبيعة الحال، فإن رجلاً مثله لا يلقي بنفسه في أحضانهم، بل إنه يفر على الدوام".

وألقى استريفر هذه الألفاظ، ولوح بذراعه للمرة الأخيرة؛ وخرج ومن ورائه معظم من كانوا يستمعون له، وبقي مستر لري ودارني وحدهما إلى جانب المكتب.

وقال مستر لري: "أتعني بأمر الرسالة؟ أتعرف أين تسلمها؟"

"نعم أعرف".

"وهل توضح لي لمَ ظلت باقية هنا بعض الوقت؟".

"سأفعل هذا. وهل تبدأ رحلتك إلى باريس من هذا المكان؟".

"من هذا المكان بالذات في الساعة الثامنة".

"سأعود إلى رؤيتك قبل سفرك".

وأخذ دارني الرسالة وغادر المصرف وهو مضطرب الفكر. وما كاد
يصل إلى مكان هادئ حتى فُض الرسالة وقراها، فإذا هي كما يأتي:

من سجن أبي

باريس

في ٢٧ يونيو سنة ١٧٩٢

سيدي:

لقد قبض عليّ وجيء بي إلى باريس مشياً على الأقدام، بعد أن
ظلت حياتي مدة طويلة معرضة للخطر على يد القرويين. وليس هذا هو
كل ما في الأمر، فقد دمر بيتي عن آخره.

أما الجريمة التي من أجلها سجنتم، ومن أجلها سأحاكم أو أعدم،
(دون أن أتلقى مساعدة منك) فهي أنني كنت أعمل في خدمة إنسان
غادر بلاده. ولم يجدي نفعاً قولي إني كنت أعمل للشعب لا عليه، وقد
كانت هذه أوامرك. ولم يجدي نفعاً قولي إني لم أجمع الضرائب، ولم أطلب
إيجار الأرض، ولم أشط إلى القضاء. وأسألكم "بأي شيء أهتم؟" فلا أجب
إلا بأني كنت أعمل في خدمة مهاجر، ثم أسأل عنه أين هو؟

آه يا سيدي! إني أرسل بصيحتي الحزينة تخترق البحر، راجياً أن
تصل إلى أذنك عن طريق مصرف تلسن العظيم المعروف في باريس، بالله
عليك يا سيدي أن تجيب رجائي فتساعدني وتطلق سراحني، فكل ذنبي أنني
كنت وفياً لك، وأرجوك أن تكون وفياً لي!

من هذا السجن الرهيب حيث يقترب مني الموت في كل ساعة
أكتب إليك يا سيدي لأؤكد لك استعدادي لأن أؤدي لك خدماتي
التعسة.

خادمك سيء الحظ

جابل

واضطرب عقل دارني حين قرأ هذه الرسالة. فقد أمر هو جابل أن
يرأف بالعامّة، وأن يعمل ما في وسعه لخيرهم، وأن يعطيهم القليل الذي

كان في وسعه أن يعطيهم إياه. والآن قد زج خادمه الأمين في السجن دون أن يرتكب جريمة إلا أنه نفذ أوامره.

وبدا لدارني أن لا بد له من الذهاب إلى باريس، ورأى هذا أمرًا واضحًا كل الوضوح. ولم ير في ذهابه خطرًا، فقد ظن أن أهل فرنسا سيذكرون له حسن صنيعه ويحمدونه له، وإن كان ما فعله لهم لم يبلغ حد الكمال، وقد يستطيع لهذا السبب أن ينقذ خادمه القديم من الموت الذي كان ينتظره وقتئذ.

وبينما هو يغدو ويروح يفكر فيما يجب أن يفعله، قرر ألا تعلم لوسي وألا يعلم والدها بأنه مسافر إلا بعد أن يسافر فعلاً. فقد رأى أن من الخير أن يبقى ما اعتزمه سرًا بينه وبين نفسه، حتى يوفر على غيره أكثر ما يستطيع أن يوفره عليهم من القلق وانشغال البال. وعاد وهذه الآراء تتردد في عقله ليودع مستر لري.

وقال له: "لقد أوصلت الرسالة لصاحبها، ولم أتلق عنها جوابًا مكتوبًا، ولكني لا أظنك تمنع في أن تأخذ عليها ردًا شفهيًا".

فأجابه مستر لري: "لن أمانع قط".

"الرد لسجين في سجن أباي واسمه جابل".

"جابل".

"أما الرسالة فهي: لقد تلقى الرسالة وهو آت".

"وهل حدد لجيئه وقتًا؟".

"سيبدأ رحلته في مساء غد".

فقال مستر لري: "حسن جدًا، والآن لا بد لي أن أذهب، بلغ أشواقي إلى لوسي، وإلى لوسي الصغيرة واعن بهما حتى أعود".

وهز تشارلس دارني رأسه وابتسم ابتسامة المرتاب حين سارت العربة في طريقها وبعدت عنه.

وقضى جزءًا كبيرًا من تلك الليلة - وكانت الليلة الرابعة عشرة من أغسطس - ساهرًا، وكتب رسالتين إحداهما إلى لوسي والأخرى إلى الطبيب، يشرح لهما الأمر ويقول إنه سيكتب إليهما من فرنسا.

وكان اليوم الثاني من أصعب الأيام عليه، فقد كان عليه أن يقضيه معهما دون أن يفضي إليهما بخططه. وفي بداية المساء قبل زوجته وابنته، وخرج مدعيًا أنه سيعود بعد قليل. وبهذا بدأ رحلته وهو واجم مُضْرَم القلب، يشجعه تفكيره في أنه مسافر ليقدم العون إلى سجين مسكين ينتظره وراء البحر في قلق شديد.

الفصل السادس عشر

دارني يعود إلى فرنسا

كان الانتقال من إنجلترا إلى باريس في عام ١٧٩٢ يتطلب وقتاً طويلاً. فقد كانت الطرق في فرنسا رديئة والعربات رديئة والخيل رديئة، حتى في الوقت الذي كان فيه الملك جالساً على عرش فرنسا. أما في الوقت الذي تتحدث عنه فقد زادت الصعاب على ما كانت عليه. كان لكل بلدة ولكل قرية عصابة من "الوطنيين" المسلحين كلهم بالبنادق المحشوة، يعترضون كل رايح وغاد، ويسألونه، ويفتشون أوراقه، ويبحثون عن اسمه في قوائم معهم، ويردونه على أعقابهم، أو يسمحون له بمواصلة السير، أو يقضون عليه حسب مشيئتهم هم، يفعلون كل ذلك باسم "الحرية والمساواة والإخاء" والجمهورية الفرنسية الجديدة.

وقبل أن يجتاز تشارلس دارني مسافة طويلة من الطرق الريفية، أخذ يدرك أنه لن يسمح له قط بالعودة إلا بعد أن يعلن أنه من مواطني باريس الصالحين. على أنه رأى أنه مهما يحدث له فإن عليه أن يذهب في رحلته إلى غايتها، وأدرك أن كل باب يوصد من خلفه إن هو إلا باب يحول بينه وبين من يجب في إنجلترا؛ وشعر أنه أشبه بجيوان في شرك، أو طائر في قفص، لأنه فقد حريته كاملة.

لقد أوقف وسئل ورد أو سمح له بالمسير عشرين مرة في يوم واحد، وقضى ثلاثة أيام سائرًا في طرق فرنسا ولكنه لا يزال بعيدًا عن باريس. وآوى إلى فراشه وهو منهوك القوى في نزل صغير، ولم يكن في وسعه أن يجتاز ما اجتاز من الرحلة إلا بإظهار رسالة جابل. ولم يدهشه قط أن يوقظه في منتصف الليل موظف وثلاثة من الوطنيين المسلحين.

وقال الموظف: "أيها المهاجر، سأرسلك إلى باريس في حراسة الجند لأتأكد من وصولك إليها".

"أيها المواطن، لست أرغب في شيء أكثر من الوصول إلى باريس، ولكنني لست في حاجة إلى الجند".

فرد عليه أحد الرجال المسلحين وهو يضرب السرير بطرف بندقيته: "صه، اسكت! أيها الأرسقراطي!".

وقال الموظف: "إن ما يقوله الوطني الطيب الحق، إنك من الأرسقراط، ولا بد لك من حراس، وعليك أن تدفع أجرهم. قم والبس ثيابك أيها المهاجر".

ولم يكن في وسع دارني إلا أن يطيع الأمر. وسيق إلى المخفر حيث كان وطنيون آخرون غلاظ يدخنون ويشربون وينامون حول نار متقدة. وهنا أرغم على أن يؤدي أجرًا باهظًا لحراسه، ثم سار في الطرق المبتلة في الساعة الثالثة صباحًا.

وكان حرسه مكوناً من اثنين من الوطنيين على رأس كل منهما
قلنسوة حمراء، ويبدو كل منهما سلاح، يركبان إلى جانبيه. وربط واحد
منهما حبلاً في جواد دارني وربط طرفه الثاني بذراعه هو. وساروا على هذه
الحال، وأوجس دارني في نفسه خيفة، ولكنه كان يرجو حسن العاقبة حين
يعلن جابل السبب الذي عاد من أجله.

غير أنه حين وصل إلى بلدة بوفيه ألقى نفسه في خطر حقيقي،
فقد أحاطت به زمرة غاضبة وأخذت تصيح. "ليسقط المهاجر!" وحاول
أن يشرح حقيقة أمره فقال:

"مهاجر أيها الأصدقاء! لقد جئت هنا بمحض إرادتي".

وأقبل عليه رجل بيده مطرقة، وصرخ قائلاً: "أنت مهاجر ملعون،
وأنت أراستقراطي ملعون".

وحال موظف بين دارني وبين الرجل، وقال له: "دعه وشأنه، دعه
وشأنه، فسيحاكم في باريس".

وصاح رجل آخر: "نعم! سيحاكم! نعم! سيحاكم ويحاكم عليه
لأنه خائن".

فقال دارني: "أيها الصديق، لست بخائن".

وصاح الرجل قائلاً: "إنه كاذب، إن القانون الجديد ينص على أن حياته وأمواله ملك للحكومة".

ولكن دارني لم يشعر بالأمن والسلامة إلا بعد أن استطاع حراسه أن يدخلوه إلى فناء نزل، ويوصدوا الأبواب بينه وبين الشعب الغاضب.

وسأل قائلاً: "ما هذا القانون الجديد؟"

"هو قانون جديد يقضي بإعدام كل مهاجر يعود إلى فرنسا؛ وقد سن هذا القانون في الرابع عشر من هذا الشهر".

"في اليوم الذي غادرت فيه إنجلترا!".

وبعد راحة قصيرة، وسفر شاق. دام ساعات طويلاً. وجد دارني وحراسه أنفسهم آخر الأمر أمام الحاجز القائم خارج أسوار باريس. ولما وصلوا إليه راكبين ووقفوا عنده وجدوه مسدوداً وعليه حرس قوي. وخرج من المخفر رجل تلوح عليه إمارات العزيمة القوية ومظهر ذوي الأمر والنهي وقال لهم:

"أين أوراق هذا السجين؟"

فأجاب دارني مغضباً: "سجين! إني مسافر حر، إني مواطن فرنسي عدت إلى فرنسا بمحض إرادتي، وأنا مسافر مع أولئك الحراس الذين أدبت لهم أجر خدمتهم لي".

ولم يعره الرجل أقل التفات.

وكرر قوله: "أين أوراق هذا السجين؟"

وأخرج أحد الوطنيين الأوراق، وألقى الرجل نظرة عليها، وقرأ الرسالة، ثم عاد إلى المخفر دون أن ينطق بكلمة، وظلوا هم في أثناء ذلك فوق جيادهم خارج الحاجز. وتلفت دارني حوله في أثناء انتظارهم هذا، فرأى جمعًا حاشدًا من الرجال والنساء والحيوان وعربات النقل تنتظر الخروج، وكل واحد من الواقفين يُفحص عنه بدقة، ومن أجل ذلك كان لا بد أن يطول انتظارهم. وعرف بعضهم أن دورهم لن يحل إلا بعد زمن طويل، فاستقلوا على الأرض محاولين أن يناموا. وأخذ غيرهم يتحدثون، واكتفى البعض الآخر بالانتظار صامتين، وكل من في الجمع رجالاً كانوا أو نساء يلبسون فلانس حمراء.

وخرج رجل بعد زمن طويل، وأمر الحراس أن يرفعوا الحاجز، ثم أعطى من كانوا يجرسون السجين إيصالاً به، وأمره أن ينزل عن جواده، ففعل، وأخذ الوطنيان بزمام جواده المتعب، وحولا وجهيهما إلى الجهة المضادة، وغادرا المكان راكبين دون أن يدخلوا المدينة.

وأخذ دارني إلى المخفر، وكان فيه جماعة من الجنود والوطنيين تنبعث منهم رائحة النبيذ والطباق، وبعضهم وقوف، وبعضهم مستلقون على الأرض. ورأى دفاتر كبيرة مفتوحة على أحد الأدراج؛ وأخذ ضابط خشن الهيئة قائم المظهر ينظر فيها.

وقال الضابط للرجل الذي أحضر دارني: "يا مواطن دفارج، يا مواطن دفارج، أهذا هو المهاجر إفريمند؟"

فأجاب دفارج: "إنه هو"

"ما سنك يا إفريمند؟"

"سبع وثلاثون"

"أمتزوج يا إفريمند؟"

"نعم"

"أين زوجتك؟"

"في إنجلترا"

"لا شك! ستؤخذ يا إفريمند إلى سجن لا فورس (القوه)."

فصاح دارني قائلاً: "يا للعدالة السماوية! بأي قانون؟ ولأية جريمة؟".

"إن لدينا يا إفريمند قوانين جديدة، شرعناها مذ كنت هنا آخر مرة". قال الرجل هذه العبارة بابتسامة صارمة - وواصل الكتابة.

"أرجوك أن تلاحظ أنني جئت هنا طائئاً مختاراً، إجابة لهذه الرسالة الموضوعية أمامك، وهي رسالة من زميل مواطن. أليست لي حقوق؟"

فكان الجواب: "إن المهاجرين يا إفريند لا حقوق لهم".

وقرأ الضابط لنفسه ما كتبه، ثم أعطاه لدفارج، وهو يقول "في السر".

وطلب دفارج إلى السجين أن يرافقه، وصحبه حرس مؤلف من وطنيين

وسأله دفارج بعد أن نزلا على درج المخفر واتجها نحو باريس: "أأنت الذي تزوج بنت الدكتور مانت؟"

فأجابه داريني، وهو ينظر إليه في دهشة: "نعم"

"اسمي دفارج، ولي حانة في حي سانت أنطوان، ولعلك سمعت بي؟"

"نعم، وقد جاءت زوجتي إلى بيتك تطلب أباه"

"وما الذي عاد بك إلى فرنسا؟"

"لقد سمعني أذكر السبب من دقيقة. ألا تعتقد أن هذا هو الحق؟"

فأجابه دفارج بقوله: "إنه حق مر في غير صالحك".

"الحق أنني أشعر باني ضائع في هذا المكان، فكل شيء فيه على غير ما كان ينتظر، وكل شيء فيه تبدل، وكل شيء فيه ظالم إلى أبعد حد. إني أشعر أنني قد وضعت كل الضياع. ألا تفعل لي شيئاً؟"

"لا شيء"

"وهل لا أستطيع وأنا في السجن الذي تسوقني إليه أن أرسل رسالة إلى العالم الخارجي؟ وهل يحكم عليّ من غير أن تكون لي وسيلة للدفاع عن نفسي؟"

"سنرى، وعلى فرض أنك قد فعل بك هذا - فإن غيرك من الناس قد سيقوا من قبل إلى سجون أسوأ من سجنك"

"من أعظم الأمور أهمية لي أن أستطيع إرسال رسالة إلى مستر لري أحد موظفي مصرف تلسن والمقيم الآن في باريس، فهل لك أن تصنع معي هذا الجميل؟ وكل الذي أطلبه أن تبلغ مستر لري أنني قد زج بي في سجن لافورس".

"لن أفعل لك شيئاً، إن واجبي لبلدي ولشعبي، وأنا عدوك، ولن أصنع لك معروفاً".

وشعر داريني أن لا فائدة ترجى من تكرار السؤال، فظلا سائرين صامتين، ولم يلفت مرورهما في الشوارع أنظار الناس، فقد أصبحت رؤية شخص حسن البزة يساق إلى السجن من المناظر التي ألفها الناس، كما ألفوا رؤية عامل يسير إلى عمله؛ بل إن الأطفال أنفسهم قلما كانوا يتلفتون إلى هذا المنظر. نعم إن عددًا قليلاً من الناس قد أداروا رؤوسهم نحوه، وعددًا قليلاً منهم أخذوا يلعنونه، لأنه من الأرستقراط، ولكنه فيما عدا هذا وذاك لم يلتفت إليه أحد. ووقف رجل عند ركن أحد الشوارع، وأخذ يحطب في جماعة قليلة العدد من الناس، وسمع داريني ما يقوله، وهو مار به، فعرف أن الملك قد سيق إلى السجن، وأن سفراء الدول الأجنبية قد غادروا كلهم باريس.

وكان سجن لا فورس مكانًا مظلمًا قدرًا تبعث منه رائحة كريهة كأنها تملأ جوانبه، وأسلم دفارج سجينه إلى مدير السجن، وهو يقول له: "المهاجر إفريند"

فقال مدير السجن: "تبًا لهم! كم بقي منهم؟"

وأعطى دفارج إيصالاً بسجينه

وقال لزوجته: "وأقول مرة أخرى تبًا لهم، كم بقي منهم؟"

وردت عليه زوجته قائلة: "يجب أن تتدبر بالصبر يا عزيزي من

أجل حبنا للحرية"

ثم واصل حديثه قائلاً: "وفي السر أيضاً، وقد كاد كل مكان فيه
يملاً".

ودق جرساً، فدخل عليه ثلاثة رجال، ونظروا كلهم إلى دارني
وأنعموا النظر فيه وأطالوه حتى تنطبع صورته في ذاكرتهم.

وقال أحدهم وهو يأخذ المفاتيح: "تعال معي أيها المهاجر".

وسارا منحدرين في ممرات، وصاعدين درجاً، يجتازان أبواباً كانت
تفتح ليمرا منها، ثم تغلق بعد ذلك من خلفهم، حتى وصلا إلى غرفة كبيرة
وطيئة مزدحمة بالمساجين، من رجال ونساء، وكان النساء جميعاً يجلسن
حول منضدة كبيرة، يطرزن أو يخطن، أما الرجال فقد كانوا يقفون من
خلفهن، أو يسيرون في الحجرة ببطء جيئة وذهاباً. واجتمع في هذا المكان
عدد من أنبل الأسر الفرنسية، ولم تفارقهم حتى في بؤسهم وشقائهم آدابهم
الراقية، فقد كان سلوكهم في السجن، على قدر ما تسمح به أحوالهم، كما
كان في قصورهم الفخمة.

وأقبل رجل نبيل المظهر والآداب، وانحنى مسلماً.

وقال: "يشرفني أن أرحب بك في سجن لافورس، وأن أعطف
عليك ساعة قدومك بيننا، وأرجو أن ينتهي مقامك معنا نهاية سعيدة
قريبة!".

"هل تتفضل فتخبرنا باسمك؟"

وأخبره دارني بما طلب.

وقال له الرجل، وهو يتبع السجنان بعينيه: "ولكني أرجو ألا تكون
(في السر)"

"إني لا أفهم معنى هذا اللفظ بالضبط، ولكني سمعتهم ينطقون به"

"آه، وا أسفاه، إن هذا ليحزننا أشد الحزن، ولكن تشجع، فقد
كان عدد كبير من طبقتنا (في السر)، غير أن ذلك لم يدم إلا قليلاً".

ثم أضاف إلى ذلك بصوت عال: "يؤسفني أن أخبر الجماعة أنه
(في السر)".

وسمعت هسهسة من العطف على دارني، انتقلت في الحجرة إلى
حيث كان ضابط السجن في انتظاره. ومرا من باب أوصده خلفه، ثم
صعدا درجًا من الحجر تؤدي إلى الطابق الأعلى. وفتح الحارس بابًا
منخفضًا أسود، دخلا منه حجرة صغيرة خالية باردة رطبة، ولكنها غير
مظلمة.

وقال الرجل: "حجرتك"

"ولم أسجن منفردًا؟"

"وكيف أعرف؟"

"وهل أستطيع أن أشتري أقلامًا وحبراً وورقًا؟"

"ليست مثل هذه أوامري. سيزورك غيري، وفي وسعك وقتئذ أن تطلبها. أما الآن فإن في وسعك أن تشتري طعامك ولا شيء غيره".

وكان في الحجر كرسى ومنضدة وفراش من القش، فتشها السجنان قبل أن يخرج.

وسمع دارني صوت المفتاح يدور في القفل، ثم كان وحده، وحده في سجن لافورس.

الفصل السابع عشر

مستر لري في باريس

شغل مستر لري بعد أن وصل إلى باريس شقة في بناء مصرف تلسن في تلك المدينة، حتى يستطيع بذلك أن ينجز عمله بأسهل ما يستطيع. وبينما هو جالس ذات ليلة بجانب النار إذ فتح الباب فجأة وادفع إلى داخل الحجرة شبهان، وكان وجودهما في ذلك الوقت غير متوقع حتى دهش لذلك أشد دهشة.

"لوسي! مانت! ما الخبر؟ ماذا حدث؟".

"فصرخت مانت، آه زوجي العزيز! زوجي!".

"زوجك يا لوسي؟".

"إنه هنا في باريس، إنه هنا من ثلاثة أيام أو أربعة، لقد جاء ليساعد إنساناً، ولكنه ألقى في السجن".

وانبعثت من الشيخ صرخة، وفي هذه اللحظة عينها تقريباً دق جرس الباب الخارجي الكبير، وتدفقت أصوات الناس ووقع الأقدام إلى الفناء.

وقال الطبيب وقد ولى وجهه شطر النافذة: "ما هذا اللغط؟".

فصاح مستر لري قائلاً: "لا تطل من النافذة! لا تمكنهم من رؤيتك إبقاء على حياتك!"

فأجابه الدكتور مانت: "لقد كنتُ يا صديقي العزيز سجيناً في الباستيل، إني آمن هنا، ولن يتردد أحد في أن يفعل أي شيء لي إذا عرف قصة سجنى. إن آلامي قد أمدتني الآن بالقوة. لقد جاءوا بنا إلى المدينة، وعرفوا لنا أخباراً عن تشارلس، وكنت أعرف أن الأمر سيكون كذلك. لقد كنت أعرف أن في مقدوري أن أنقذ تشارلس. ما هذا اللغط؟"

وكرر مستر لري قوله: "لا تطل! ولا أنتِ يا عزيزتي لوسي. أين تشارلس؟".

"في سجن لافورس"

"لافورس، عليك يا لوسي أن تفعلي ما أمرك به بالضبط. ليس في وسعك ان تفعلي شيئاً في هذه الليلة، بل عليك أن تقيمي ساكنة في حجرة من ورائنا هنا، واتركيني أنا ووالدك وحدنا بضع دقائق".

"سأفعل ما تقول، فإني أثق بك".

وقبلها الشيخ، وأدخلها الحجرة بسرعة وأغلق الباب، ثم عاد إلى الطبيب، وأطل الاثنان من النافذة على الفناء، وأنعما النظر فيما كان فيه،

فأبصر أربعين أو خمسين شخصًا يشحذون السكاكين والسيوف وغيرها من الأسلحة على حجر مسن كبير. وكانت وجوه أولئك الرجال والنساء هائجة مستوحشة ملطخة بالدماء.

وهمس مستر لري قائلاً: "إنهم يذبجون المساجين، فإذا كنت واثقًا من سلطانك على هؤلاء الناس فقل لهم من أنت واذهب إلى لافورس، ولعلنا قد تأخرنا أكثر مما يجب، ولكن علينا ألا يطول تأخرنا أكثر من ذلك دقيقة واحدة".

وضغط دكتور مانت على يد مستر لري وأسرع بالخروج.

ووصل إلى الفناء حين عاد مستر لري إلى النافذة. وسرعان ما ساقه شعره الأبيض، ووجهه العجيب، ومظهره المفعم بالثقة، سرعان ما ساقه هذا كله إلى وسط الجمهور، وساد السكون لحظة، ثم أبصره مستر لري يخرج مسرعًا، ومن حوله الجماهير كلها تصيح: "ليحيي سجين الباستيل! المعونة لصديقه في لافورس! أنقذوا السجين إفريمند في لافورس؟"

وغادر مستر لري النافذة، وأسرع إلى حيث كانت لوسي، وأخبرها بما حدث. ووجد معها طفلتها والآنسة برس، وظلوا طول ليلهم ينتظرون الأخبار ولكن لم يأتيهم خبر.

واقترب ظهر اليوم الثاني، ولم تأتهم أية رسالة، وبدأ القلق يساور مستر لري، ويشعر أن لوسي يجب ألا تبقى في المصرف أكثر مما بقيت.

ذلك أن واجبه يقضي عليه أن يرعى مصالح مصرف تلسن، وليس من حقه أن يقيم الصعاب في سبيله، ولو كان ذلك من أجل معونة أصدقائه. ولما أفضى بهذا الأمر إلى لوسي، قالت إن أباهما كان في نيته أن يستأجر شقة قرب المصرف.

ونقل لوسي هي وابنتها والآنسة برس من فوره إلى هذا المسكن، وقدم لهن من أسباب الراحة ما كان في وسعه أن يقدمه لهن، وأكثر مما كان يتمتع به منها هو نفسه. وترك معهن جري ليعني بهن، ثم عاد إلى المصرف وظل يعمل فيه حتى أغلقت أبوابه في آخر النهار. ولما انفرد بنفسه مرة أخرى في حجرته سمع وقع أقدام على الدرج، ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى وقف رجل أمامه وناداه باسمه.

فقال مستر لري: "خادمك، هل تعرفني؟"

فأجابه الرجل: "هل تعرفني؟"

"لقد رأيتك في مكان ما"

"لعل ذلك في حانتي؟"

وسأله مستر لري، وقد أخذ يهتم بالأمر ويشغل باله: "هل جئت من عند الدكتور مانت؟"

"نعم"

وناوله دفارج ورقة عليها كلمات بخط الطبيب:

"تشارلس آمن، ولكني لا أستطيع مغادرة هذا المكان بعد. إن مع الرجل الذي يحمل لك هذا رسالة صغيرة من تشارلس إلى زوجته، فاسمح له بأن يراها".

وقال مستر لري مغتبطاً: "هل ل كان تأتي معي إلى حيث تقيم زوجته؟".

فأجابه دفارج: "نعم"

وقلما كان مستر لري يلاحظ أن دفارج يتكلم بفتور. ونزلاً معاً إلى الفناء حيث وجدا امرأتين، إحداهما تطرز.

وقال مستر لري: "مدام دفارج من غير شك؛ هل هي آتية معنا؟".

"نعم، وذلك لكي تستطيع التعرف على الأشخاص، من أجل سلامتهم".

ونظر مستر لري إلى دفارج نظرة المرتاب، ثم سار في المقدمة، وتبعته المرأتان، وكان اسم المرأة الثانية الانتقام (فجنس).

وأدخلهم جري ووجدوا لوسي وحدها. وامتلاً قلبها سروراً حين سمعت ما جاءوا به من الأخبار، وضغطت بشدة على اليد التي أعطتها الرسالة.

"يا أعز الناس عليّ - تشجعي. إني بخير، ولأبيك نفوذ في هذا المكان. ليس في وسعك أن تجيبي عن هذه الرسالة، قبلي لي طفلتنا".

هذا كل ما كتب، وكلنه كان فيه الشيء الكثير لمن تلقته.

وقبلت يد مدام دفارج، وكلنها أحست بها باردة وثقيلة، وشرعت تطرز مرة أخرى. وكان في ملمسها شيء استوقف لوسي، فنظرت إلى المرأة وهي مرتاعة.

وأخذ مستر لري يوضح الأمر قائلاً: "يا عزيزتي، إن في الشوارع قتلاً كثيراً، وتردي مدام دفارج أن تراك حتى تعرفك في مستقبل الأيام، وحتى تستطيع أن تقدم لك المعونة إذا احتاج الأمر. أهذا صحيح يا مواطن دفارج؟"

وسمع الثلاثة هذه الألفاظ في صمت كصمت الحجارة.

وواصل مستر لري حديثه قائلاً: "يحسن أن تطلي إلى الآنسة برس أن تأتي بالطفلة إلى هنا حتى تراها أيضاً".

ولما جاءت الآنسة برس بلوسي الصغيرة سألتها مدام دفارج:

"أهذه ابنته؟"

فأجابها مستر لري: "نعم يا سيدتي"

وقالت مدام دفارج: "حسبنا هذا يا زوجي، فلنذهب".

وقالت لوسي: "أتحسنين معاملة زوجي؟ أسمحين لي أن أراه إن استطعت؟".

فأجابتها مدام دفارج قائلة: "لا شان لي بزوجك في هذا المكان".

"أستحلفك بحق الزوجية والأمومة أن ترحميني، وان تفعلي خير ما تستطيعين لزوجي البريء".

"وماذا كان من أمر الأزواج والأمهات اللاتي رأيناهن مذكنا أطفالاً. لقد طالما رأينا أزواجهن وآبائهن يزجون في السجون؛ وقد رأيناهن طوال حياتنا يعانين آلام الفقر والجوع والمرض والشقاء".

وقالت الانتقام: "ولم نر شيئاً غير هذا"

وقالت مدام دفارج: "ولقد صبرنا على هذا طويلاً؛ وهل تظنين أن متاعب زوجة وأم واحدة تهمنا كثيراً في هذه الأوقات؟"

ثم شرعت تطرز من جديد وخرجت ومن ورائها المرأتان الأخريان.

وقال مستر لري: "الشجاعة يا عزيزتي؛ إننا أحسن حالاً من كثير من تلك الأرواح المسكينة؛ فاحمدي الله على هذا".

فأجابته لوسي قائلة: "أرجو ألا أكون ممن يجحدون نعمة الله؛ ولكن يخيل إلي أن هذه المرأة الرهيبة تلقي ظلاً من الكآبة علي وعلى آمالي كلها".

وكان مستر لري هو الآخر في خبيثة نفسه شديد القلق، وإن كان قد بذل جهده ليظهر المرح المتفائل.

ثم عاد بعدئذ ولم يخبر لوسي أن ألفاً ومائة سجين، من رجال ونساء مختلفي الأعمار، لا نصير لهم ولا معين، قد لاقوا حتفهم على أيدي الشعب. وكل ما عرفته أن هجوماً وقع على السجون، وأن بعض المسجونين قد ذبحوا ذبحاً. على أنه أخبر مستر لري بما حدث بعد أن وعده هذا بأن يحتفظ بما قاله له سرّاً مكتوماً.

ووجد الدكتور مانت ما يشبه أن يكون محكمة منعقدة في السجن، وصرح أمامها بأنه من مسجونى الباستيل، وعرفه دفارح. ثم طلب الطبيب أن تنظر قضية دارني على الفور، وقبلت المحكمة الطلب، ورفض أعضاء المحكمة - لسبب لم يستطع الطبيب أن يدركه - إطلاق سراح دارني، ولكنهم قبلوا أن يبقى آمناً في السجن، وألا يقتل. وبقي الطبيب في حراسته حتى هدأت تائرة الشعب بعض الشيء وزال الخطر عنه.

ولما وصف الطبيب المناظر المروعة التي شاهدها في السجن، بدأ مستر لري يخشى أن تعيد إليه هذه التجارب مرضه القديم؛ ولكن مرت الأيام واتضح أن مصائب الطيب وهبته قوة الجسم والعقل. وكان مما قاله: "إن الأيام التي قضيتها في السجن لم تكن يا صديقي مجرد ضياع وقت وإتلاف؛ ولما كانت طفلي العزيزة قد أعانني على أن أسترد صحي فسأعيد الآن زوجها إلى جانبها، وسأفعل ذلك بعون الله". وآمن جارفس بذلك حين رأى الطبيب يطوف في المدينة والحرم باد في وجهه، والهدوء متجل في مظهره.

واستخدم الطبيب نفوذه بحكمة جعلته بعد قليل من الوقت المفتش الصحي لثلاثة سجون منها سجن لافورس؛ وبذلك استطاع أن يرى دارني مرة في كل أسبوع، وأن ينقل إلى لوسي أخباره. وحاول جهده أن يطلق سراحه، أو ان يقدم إلى المحاكمة، ولكن حوادث تلك الأيام كانت أقوى مما يستطيع التغلب عليها. وبدأ العهد الجديد، وحوكم الملك وأعدم، وخفقت الراية السوداء على الأبراج الكبيرة في نتردام (أعظم كنائس باريس)، وغصت السجون بمن لم يقترفوا ذنبًا، وجزت المقصلة رؤوس الأقوياء، وقتلت الحسان والصالحين... وسلك الطبيب في هذه الحوادث الرهيبة مسلك العاقل المتزن، ولم يشك لحظة في أنه سينجي زوج لوسي في آخر الأمر.

الفصل الثامن عشر

محاكمة دارني

ومرت سنة وثلاثة أشهر، وظلت لوسي في خلالها تمر بها الساعات وهي غير واثقة في كل يوم منها من أن المقصلة لن تطيح برأس زوجها في اليوم الثاني. وكانت العربات كل يوم تسير في الشوارع الحجرية، خاصة بالناس في طريقهم إلى الموت تحت سكين المقصلة الذي لا يرحم ولا يلين. فكانت العذارى الحسان والنساء المهذبات الرقيقات، من ذوات الشعر الأسود والأسمر والأشيب، والشبان، والشيخوخ، والفقراء، والنبلاء، كان هؤلاء جميعًا يخرجون من ظلمات السجون الرهيبة إلى الضوء، ويُحملون في الشوارع ليكونوا طعامًا للمقصلة، تلك الأداة التي لم يكن شيء يشبع نهمها. الحرية والمساواة والإخاء أو الموت. وكان الموت من بين هذه الأربعة أكثرها حدوثًا، وأسهلها منالاً.

وكان هذا الوقت من أصعب الأوقات على لوسي؛ ولو أنها استسلمت فيه لليأس لما بقيت على قيد الحياة، ولكنها ظلت وفية لواجباتها، فكانت تعني بأبيها وبابنتها كما كانت تعني بهما في إنجلترا، تعلم لوسي الصغيرة دروسها بانتظام، كأنهم كلهم آمنون في بيوتهم بإنجلترا. والحق أنها كانت لديها أسباب قوية تبعث الأمل في قلبها، فقد كان الدكتور مانت

شخصية محبوبة مبعجلة بين الثوار، وكلما تحدثت له عن مخاوفها وقلقها
أجابها في قوة:

"لا شيء يا لوسي يمكن أن يصيب تشارلس من غير علمي، وأنا
أعرف أن في وسعي أن أُنجيه".

وقال لها أبوها في يوم من الأيام بعد أن عاد إلى البيت.

"إن في السجن يا عزيزتي نافذة عليا، يستطيع تشارلس في بعض
الأحيان أن يصل إليها. وحين يفعل هذا (وهو أمر غير كثير الحدوث)
يكون في وسعه أن يشاهدك في الشارع إذا وقفت في مكان معين في
مقدوري أن أدلك عليه. ولكنك يا ابنتي المسكينة لن تستطيعي مشاهدته،
ولو انك استطعت لكان من الخطر عليك أن تشيرني بأية علامة تدل على
أنك تعرفينه".

"آه، يا والدي، دلي على المكان، وسأذهب إليه في كل يوم"

وكان هذا المكان ركنًا من أركان شارع مظلم قدر مجاور لكوخ
قاطع أخشاب. وظلت من ذلك اليوم تذهب إليه وتنتظر فيه ساعتين مهما
تكن حال الجو. فإذا دقت الساعة الثانية كانت هناك، وإذا حانت الساعة
الرابعة عادت حزيننة إلى دارها. وكانت في الجو الطيب تأخذ لوسي الصغيرة
معها، أما في الجو الرديء فكانت تنتظر وحدها، ولكنها في جميع الجواء لم
تنقطع عن الانتظار يومًا واحدًا.

وكان قاطع الأخشاب قبل تلك الأيام معبداً للطرق، ولكنه كان وقتئذ يكسب قوته بتقطيع الأخشاب قطعاً للحريق. ولما رآها مراراً عدة في نفس المكان على الدوام حياها بقوله:

"طاب يومك يا مواطنة"

فأجابته: "طاب يومك يا مواطن"

وحزر السبب الذي جاءت من أجله، فأشار إلى السجن، ووضع أصابعه أمام وجهه ليمثل بها قضباناً، وأطل من خلالها كما يطل السجين من نافذة ذات قضبان.

وقال: "لكن هذا ليس من شأني"، ثم عاد إلى تقطيع الخشب.

وجاءت لوسي بابنتها إلى ذلك المكان في اليوم الثاني، وشاهدها قاطع الخشب مرة أخرى، وأرى الطفلة بلطته التي كان يسميها المقصلة الصغرى، وأراها كيف تقطع الخشب كما تقطع المقصلة الحقيقية رؤوس الناس. وروع ذلك القول قلب لوسي ولكنها لم تجرؤ على النزاع معه، بل أعطته بدلاً من ذلك مالاً، لأنها لم تكن تستطيع الانتظار في غير ذلك المكان، ولأنها كانت تخافه بعض الخوف. وكانت تراه أحياناً يراقبها، فإذا نظرت إليه يقول: "ليس ذلك من شأني"، ثم يستمر في تقطيع الخشب.

وكانت لوسي تقضي في ذلك المكان ساعتين في كل يوم مهما تكن حال الجو، في ثلج الشتاء، وفي رياح الربيع العاتية؛ وفي حر الشمس

اللافح في الصيف، وفي أمطار الخريف. وكان زوجها يراها (وقد عرفت ذلك من أبيها) مرة في كل خمس مرات تقريباً تذهب فيها إليه، فكان تارة يراها مرة في كل يومين، وتارة يمر أسبوع كامل أو أكثر من أسبوع لا يراها فيه.

وبينما كانت تنتظر في مكانها المعهود في يوم من أيام شهر ديسمبر، أقبل عليها أبوها وقال لها:

"لوسي، لقد تركت تشارلس تَوًّا، وهو ذاهب إلى النافذة، وليس هنا أحد يستطيع أن يراك؛ ولهذا فإن في وسعك أن تقبلي يدك له؛ وسيراك".

وقبلت لوسي يدها مراراً في اتجاه السجن.

"إنك لا تستطيعين رؤيته، هل تستطيعين يا عزيزتي؟"

"لا يا أبت، لا أستطيع".

وسمعا وقع أقدام على الثلج، فالتفتا وأبصرا امرأة تمر بهما، وكانت هي مدام دفارج.

وقال لها الطبيب: "أحييك يا مواطنة"

وأجابته مدام دفارج بقولها: "أحييك يا مواطن"، ثم مرت كما يمر
الظل الأسود في الطريق الأبيض.

"أعطني ذراعك يا لوسي، وهيا بنا نذهب من هذا المكان وعلينا
سمات الانسراح والشجاعة إكرامًا له. حسن! لقد أحسنت فعل ذلك إذ
رفعت رأسك بشجاعة، وسيفخر بك. والآن استمعي إليّ، فإن لديّ أخبارًا
هامّة. سيدعى (تشارلس) للمحاكمة غدًا؛ وسيحاكم في الكنسير جري".

"غداً".

"وهل تخافين؟"

فأجابته وهي ترتجف: "إني واثقة بك".

فقال لها الطبيب: "نقي بي، لقد أوشك انتظارك الطويل يا عزيزتي أن
ينتهي، وسيعود إليك حتمًا بعد ساعات قلائل، والآن لا بدلي أن أرى
لري".

وكان مستر لري الشيخ لا يزال في مصرفه، بل إنه في واقع الأمر لم
يغادره قط. فكثيرًا ما كان الموظفون يأتون ليفحصوا دفاتره لبيحثوا فيها
عن أملاك المهاجرين. وكان هو يعمل لإنقاذ كل ما يستطيع إنقاذه
لأصحاب هذه الأملاك؛ وكان أجدر رجل يستطيع مصرف تلسن أن
يرسله إلى فرنسا في تلك الأوقات المضطربة.

وكان مع مستر لري زائر، زائر لم يكن يرغب في أن يراه أحد. فلما سمع هذا الزائر الطبيب ولوسي مقبلين. قام من فوره واختفى في حجرة أخرى. هذا الزائر هو سدني كارتن، وقد سمع من حجرته مستر لري يرحب بلوسي وبأبيها، وسمعه كذلك يكرر هذه العبارة: "نقل إلى الكنسير جري، وسيدعى غدًا للمحاكمة"

وكان ثبت الأسماء يقرأ كل يوم في هذا السجن وفي كل سجن آخر، وهي أسماء من سينقلون إلى الكنسيرجري لينتظروا المحاكمة في صباح اليوم الثاني.

وسمع تشارلس دارني، ولم يكن بعد "في السر"، هذا الثبت يقرأ مرارًا كثيرة. وكان من قبل قد سمع مئات الأسماء تقرأ، ورأى مئات من أصحابها يخرجون ثم لا يعودون أبدًا. وأخيرًا سمع اسمه هو.

"تشارلس إفريمند المسمى دارني"

ونودي ثلاثة وعشرون اسمًا، ولكن لم يجب من أصحابها إلا عشرون، لأن واحدًا منهم مات من قبل في السجن ونسي أمره، واثنين منهما ذهبا من قبل إلى المقصلة.

وتقدم تشارلس إلى المكان المخصص لمن نوديت أسماءهم، وقال بضع كلمات قليلة لبعض من كانوا معه، ولكنهم افرقوا بعد قليل. والحق

أن هذا الفرق أصبح من الأمور المألوفة، حتى لم يكن أحد يهتم به كثيراً، لأنه أضحي جزءاً من حياة السجن، لا أكثر ولا أقل.

وكان الطريق الموصل إلى الكنسير جري قصيراً مظلمًا. وكان الليل في كهوفه الرطبة طويلاً باردًا. وأُخرج منها في اليوم الثاني خمسة عشر شخصًا حوكموا قبل أن يدعى تشارلس دارني، واستغرقت محاكمة هؤلاء الخمسة عشر كلهم ساعة ونصف ساعة، وسيقوا جميعًا إلى المقصلة.

ثم جاء دوره أخيرًا! وواجه تشارلس إفريند المدعو دارني القاضي والمحلفين. وجلس هؤلاء مع القاضي (الرئيس) وكانوا يلبسون قبعات مزينة بريش الطيور. وغصت ساحة القضاء بالرجال والنساء من أكثر أهل باريس غلظة وفضاظة وحقارة. وكان أولئك القوم يتتبعون كل محاكمة تتبعًا دقيقًا للغاية. وكثيرًا ما كان صراخهم العالي بالموافقة أو عدم الموافقة يعطل عمل المحكمة، وكانوا يُجَيِّون كل حكم يصدر بالإعدام بأعلى أصوات البهجة والسرور؛ وكان الرجال منهم مسلحين بأسلحة مختلفة، وعلى رؤوسهم قلانس حمراء، بل إن كثيرات من النساء أنفسهن كن يحملن السكاكين، وكان بعضهن يأكلن ويشربن، وهن ينظرن إلى ما كان يحدث أمامهن، وأخذت الكثيرات منهن يطرزن. وكان بين اللاتي يطرزن امرأة تبدو عليها سمات العزيمة، تجلس إلى جوار الرجل الذي تبين تشارلس أنه دفارج، وتمس في أذنه بين الفينة والفينة، ولاح أنها زوجته.

وجلس الدكتور مانت في ثيابه القاتمة تحت منصة رئيس المحكمة.
وكان مستر لري هو الشخص الوحيد الآخر في المحكمة الذي يلبس
ملابس عادية.

واتهم تشارلس إفريمنند دارني بأنه مهاجر، وبوصفه مهاجرًا يجب أن
يحكم عليه بمقتضى القانون الذي يحرم على المهاجرين جميعًا أن يعودوا إلى
فرنسا. فأما أن ذلك القانون قد سُنَّ بعد عودته فلم يكن أمرًا ذا بال،
فحسبه أنه مهاجر، ولذلك يجب أن يحكم عليه بالإعدام.

وصاح الحاضرون: "اقطعوا رأسه! إنه عدو للجمهورية!"

ودق الرئيس الجرس ليسكت هذا الضجيج، ثم سأل المتهم:

"هل صحيح أنك أقمت في إنجلترا عدة سنين؟"

فأجابه دارني: "لا شك أنه صحيح"

"إذن فلست مهاجرًا"

"إني لست مهاجرًا في عرف القانون، وقد تخليت عن لقب مركيز
لأني كرهت هذا اللقب، وذهبت لأعيش في إنجلترا وأكسب عيشي هناك
لأني لم أكن أرغب في أن أعيش من عمل أهل فرنسا المعذبين. وكان ذلك
كله قبل أن يفكر أحد في اسم مهاجر".

"وأبي دليل لديك على هذا؟"

وذكر اسمي شاهدين، هما (ثيوفيل جابل، وألكسندر مانت).

"وهل تزوجت في إنجلترا؟"

"نعم ولكن زوجتي لم تكن إنجليزية، بل هي فرنسية"

"مواطنة فرنسية؟ وما اسمها، وإلى أية أسرة تنتسب؟"

"اسمها لوسي مانت، وهي الابنة الوحيدة للدكتور مانت المعروف

لكل إنسان بأنه صديق الجمهورية، وسجين قديم من سجناء الباستيل".

وكان لهذا الجواب ولاسم الدكتور مانت أحسن الأثر في الجمهور،

وامتلات الساحة بصياح الفرح حين ذكر اسم الطبيب الطيب، وأخذت

الجماهير التي كانت من دقائق قليلة تنظر إلى المتهم بعين المقت تبسم له.

وسأله الرئيس: "ولم عدت إلى فرنسا حين عدت إليها؟ ولم لم تعد

إليها قبل ذلك الوقت؟"

"لم أعد إلى فرنسا أسرع مما عدت لأني لم تكن لي وسيلة للعيش فيها.

أما في إنجلترا فكنت أعيش من تعليم اللغة الفرنسية وآدابها. وعدت حين

عدت لأني تلقيت رسالة من مواطن فرنسي تعرضت حياته للخطر بسبب

غيايي. عدت لكي أحاول إنقاذ حياة مواطن، ولأؤدي شهادة له مهما يكن فيذلك من خطر عليّ، فهل يعد هذا جريمة في نظر الجمهورية؟".

وصاحت الجماهير قائلة: "لا!". ودق الرئيس جرسه مرة أخرى ولكنهم ظلوا يصيحون "لا" حتى بحت أصواتهم.

وسأله الرئيس: "وما اسم ذلك المواطن؟".

"هو شاهدي الأول المواطن جابل. ولا شك في أن رسالة مسيو جابل بين الأوراق التي أمام الرئيس".

وكان الطبيب قد عمل على أن تكون الرسالة بين الأوراق التي أمام الرئيس، ولم يكن لديه في هذا أدنى شك، وأخرجت الرسالة وقرئت.

ونودي المواطن جابل.

"هل هذه رسالتك يا مواطن جابل؟"

"إنها هي. لقد بقيت شهوياً كثيرة في سجن أبي من غير محاكمة، ولم يطلق سراحي إلا بعد أن سجن المواطن إفريند".

ثم سئل الدكتور مانت. وكان حب الشعب إياه ولإجابته الواضحة أحسن الأثر: "لقد كان المواطن إفريند المدعو دارني أول أصدقائي في إنجلترا، وكان على الدوام ولا يزال مخلصاً لي ولابنتي، ولم يكن محبوباً من

حكومة إنجلترا، بل إن تلك الحكومة في واقع الأمر قدمته للمحاكمة لتحكم عليه بالإعدام لأنه عدو إنجلترا. وشهد هذه المحاكمة المستر لري وهو رجل إنجليزي حاضر الآن في هذه المحكمة، وفي وسعه أن يشهد بصدق هذا القول".

وقرر الخلفون بعد أن سمعوا هذا كله أنهم مكتفون بما سمعوا، وأنهم مستعدون لإعطاء أصواتهم إذا رغب الرئيس في سماعها، وقال الرئيس إنه راغب في ذلك.

وأعطى الخلفون أصواتهم علانية، واحدًا بعد واحد، وكان الجمهور يصيح كلما أعطى أحدهم صوته، وكانت كل الأصوات في صالح السجن، وأعلن الرئيس أنه رجل حر.

وعلت صيحة الفرح في ساحة المحكمة، وأذرفت الدموع غزيرة، والتفت مئات من الناس حول دارني، ولم يتخلص منهم إلا بشق الأنفس، وإن يكن هؤلاء الناس أنفسهم لا يلقون استعدادًا لأن ينتزعوه من حراسه ويقتلوه في الشارع.

ولم يكد يخرج دارني من المحكمة حتى حل محله خمسة آخرون ليحاكموا بتهمة أنهم أعداء الجمهورية، لأنهم لم يساعدوها بأقواهم أو بأعمالهم. ولم تستغرق محاكمتهم زمنًا طويلاً، وحكم عليهم جميعًا بالإعدام قبل أن يتمكن دارني من مغادرة المحكمة.

وخرج كثيرون ممن حضروا محاكمة دارني معه إلى الشارع، وانضم إليهم فيه مئات غيرهم، وأخذوا كلهم يهتفون ويضحكون، ولكن وجه دفارج ووجه زوجته لم يكونا بينهم.

وأرغم الشعب دارني على الجلوس في كرسي وحملوه على أكتافهم، وساروا به محمولاً على الأكتاف في موكب مضطرب، ومن ورائه مئات من المواطنين المغتربين؛ واخترق الشوارع وهو على هذه الحال حتى وصل إلى فناء بيت الدكتور مانت. وفيه أنزلوه، فاندفع صاعداً على الدرج إلى حيث كانت زوجته في انتظاره. ولما رآه الشعب يمد ذراعيه، ورآها تسقط بينهما فاقدة وعيها، أخذ الرجال والنساء يقبل بعضهم بعضاً من شدة الفرح، وشرعوا كلهم يرقصون في فناء الدار. ولما شعبوا من هذا أجلسوا فتاة على الكرسي، ورفعوها على أكتافهم، ونادوا قائلين إنها إلهة الحرية. ثم خرجوا وهو لا يزالون يهتفون ويصرخون، وعادوا من حيث أتوا.

وسرعان ما أفاقت لوسي، وظل كلاهما واقفاً ينظر إلى صاحبه زمناً طويلاً. ونادر دارني زوجته بصوت رقيق "لوسي، زوجتي! لقد نجوت أخيراً!".

"تشارلس يا أعز الناس عليّ! فلنحمد الله الذي أنجأك من هذه الأخطار الكثيرة".

وطأطأ رأسيهما وحمدا الله كثيراً، وأمسكت الأنسة برس بلوسي الصغيرة وقدمتها لأبيها ليقبلها، فطوقت عنق أبيها بذراعيها ولم تشأ أن ترفعهما عنه.

ثم جاء الدكتور مانت وهو لا يقوى على التنفس، ولكنه كان فخوراً مبتهجاً، وتبعه بعد قليل مستر لري وهنأ كلاهما دارني تهنئة قلبية على نجاته.

وقال دارني للوسي: "والآن يا عزيزتي يجب علينا أن نقدم الشكر لأبيك، فلم يكن رجل غيره في فرنسا بأجمعها ليستطيع أن يفعل ما فعله هو لي".

ووضعت لوسي رأسها على صدر أبيها ولم تنبس ببنت شفة، كما كانت تضع رأسه على صدرها في باريس من زمن جد طويل.

وقال لها: "يجب ألا تضعفي يا أحب الناس إليّ، لا ترتجفي. ألم أقل لك إني سأنجيه؟ وهأنذا قد أنجيتته".

الفصل التاسع عشر

دقة على الباب

نجا دارني ولكن لوسي مع ذلك لم يكن في وسعها أن
تغبط كل الاغتباط، وكان قلبها مفعماً بالمخاوف، فكثيراً
ما كان الأبرياء، يقتلون، وقد لاقى كثيرون ممن لا يقلون
براءة عن زوجها وكثيرون ممن كانوا أعزة على غيرهم كما
كان هو عزيزاً عليها، لاقى كثيرون من هؤلاء وأولئك
المصير الذي نجا هو منه.

أما أبوها فكان شعوره يختلف عن هذا الشعور، فقد قام بالواجب
الذي أخذ على عاتقه أن يقوم به، ووفى بالعهد الذي قطعه على نفسه بأن
يطلق سراح تشارلس، والآن وقد أثبت أنه ذو قوة وسلطان فقد أراد من
غيره أن يتعمدوا عليه في هذا الوقت العصيب.

وكان جري كرنش والآنسة برس يستعدان في يوم من الأيام للخروج
لشراء الطعام من الحوانيت الصغيرة القريبة من مسكنهم؛ ووقفت الآنسة
برس تسأل الطبيب سؤالاً:

"هل لدينا الآن أمل ما في مغادرة هذا المكان؟".

فأجابها: "أخشى أن أقول ألا أمل لنا في ذلك، وأن تشارلس يعرض نفسه للخطر إذا حاول مغادرة البلاد".

فقالت الآنسة برس: "إذن فلنصنع الصبر ولننتظر. والآن هيا بنا يا مستر كرنشر".

وخرجا تاركين لوسي وزوجها وأباها وطفلتها بجانب نار ساطعة. وكانوا ينتظرون عودة مستر لري من المصرف بعد قليل، وكان الهدوء شاملاً، ولوسي أكثر طمأنينة مما كانت في أي يوم من الأيام الماضية. وصاحت فجأة: "ما هذا؟".

فقال لها أبوها وقد وضع يديه على يديها: "اهدئي! يا عزيزتي!".

"لقد خيل إليّ أنني أسمع وقع أقدام غريبة على الدرج!".

"إن الدرج يا عزيزتي ساكنة كل السكون"

وبينما هو يقول هذا إذ دق الباب.

أخذ الطبيب المصباح بيده، وذهب ليفتحه، وجلست لوسي تنتظره وهي مرتاعة. فلما فتح الباب وجد في خارجه أربعة رجال غلاظ، على رؤوسهم قلانس حمراء، ومسلحين بالسيوف والمسدسات.

وقال أولهم وهو يدخل الدار: "المواطن إفريمند المسمى دارني".

وأجاب دارني قائلاً: "من ذا الذي يطلبه؟".

"أنا أطلبه، نحن نطلبه، إني أعرفك يا إفريميند، فقد رأيتك في المحكمة اليوم، وأنت الآن سجين الجمهورية مرة أخرى".

وأحاط الأربعة رجال به وهو واقف وزوجته وابنته الصغيرة تمسكان به.

"قل لي لم أكون سجيناً مرة أخرى؟".

"حسبك أن تعود معنا، وستعرف ذلك غداً، فستحاكم غداً".

وجمد الدكتور مانت في مكانه كأنما قد قد من حجارة، ووقف والمصباح في يده كأنه تمثال. ولما قيلت هذه العبارة وضع المصباح من يده واتجه نحو قائليها.

وقال الطبيب: "أتعرف من أنا؟".

"نعم أعرفك أيها الطبيب المواطن".

"هل لك أن تجيبني عن سؤاله إذن؟ كيف حدث هذا؟".

وقال أول الرجال وهو كاره: "أيها الطبيب المواطن، لقد اتهمه أناس في حي سانت أنطوان" ثم أشار إلى ثاني من دخل من الرجال وقال: "وهذا المواطن قادم من سانت أنطوان".

وأوماً الرجل الثاني برأسه وقال: "إن سانت أنطوان يتهمه".

وسأله الطبيب: "بأي شيء يتهمه؟".

وقال الرجل الأول: "أيها الطبيب المواطن لا تسئل غير هذا، إنا على عجل يا إفريمند".

وقال لهم الطبيب راجياً: "لحظة واحدة، هل لكم أن تخبروني من الذي اتهمه؟".

"إن ذلك مخالف للقانون، ولكن - ما علينا - إن التهمة موجهة إليه من المواطن دفارج ومن المواطنة دفارج ومن شخص آخر".

"أي شخص آخر؟".

وقال الرجل القادم من سانت أنطوان: "ستجاب عن هذا السؤال غداً".

الفصل العشرون

الآنسة برس تجد أخاها

واتخذت الآنسة برس طريقها في الشوارع، وهي لا تعرف قط شيئاً مما حدث في المنزل، بل كانت تفكر فيما يجب عليها أن تتباعه للأسرة. وسار مستر كرنشر إلى جانبها يحمل السلة، وأخذها وهما سائران يطلان في الحوانيت، ولكنهما حرصا على أن يبتعدا عن كل جماعة مهتاجة من الأهلين.

واشترت الآنسة برس شيئاً من الطعام و شيئاً من الزيت للمصباح، ثم تذكرت أن عليها أن تشتري شيئاً من النبيذ، وأخذت تطل في عدد من حوانيته، ولكنها لم تدخلها لأنها وجدتها مزدحمة صاخبة، ثم عثرت بعد وقت ما على واحد منها أهدأ من غيره، وليس فيه إلا عدد قليل من الزبائن، فدخلته.

وكان فيه عدد من الناس، معظمهم مسلحون، بعضهم يلعب الورق، وواحد منهم يقرأ صحيفة بصوت عال، وآخرون يستمعون له، ومنه واحد أو اثنان غلبهم النعاس فناما على كرسيهما. وتقدمت الآنسة برس هي وجري إلى صاحب الحانوت وسألاه عما يحتاجه.

وبينما كان الرجل يكيل النبيذ ترك رجلاً زميلاً له في ركن من أركان الحانوت وهم واقفاً يريد الخروج. وكان لا بد له وهو خارج أن يواجه الأنسة برس، ولم يكدها يوجهها حتى صرخت بصوت عال.

واتجهت أبصار الحاضرين جميعاً نحوهما ليعرفا ماذا حدث، ولكنهم لم يروا إلا رجلاً وامرأة يحدق كل منهما في الآخر؛ وكان مظهر الرجل من أوله إلى آخره يدل على أنه فرنسي، أما المرأة فكان واضحاً أنها إنجليزية.

وصاحت الأنسة برس قائلة: "أي سليمان، عزيزي سليمان، هل وجدتك أخيراً بعد أن لم عيني عليك تلك السنين الطوال؟".

فناداها الرجل بلهجة الخائف الغاضب: "لا تسميني سليمان! هل تريدني أن تكوني سبباً في هلاكي؟".

وصاحت الأنسة برس قائلة: "أخي، أخي! كيف تسألني مثل هذا السؤال القاسي؟".

فقال لها سليمان: "إذن فامسكي لسانك، واخرجني إذا شئت أن تتحدثني إليّ، أدّ ثمن نبيذك واخرجني. من يكون هذا الرجل؟".

وقالت الأنسة برس وهي تمز رأسها هزة الحزن لأخيها الذي خلا قلبه من حبها: "مستر كرنشر".

وقال سليمان: "فليخرج هو أيضاً. هل يظن أنني طيف خيال؟".

وقد بدا مستر كرنشر كأنه كان طيف خيال بحق. ذلك أن مظهر الدهشة الذي بدا على وجهه كان عظيمًا إلى أبعد حد. على أنه مع هذا لم يقل شيئًا وخرج من الحانوت وراء الأنسة برس.

والتفت سليمان إلى من كان معه من الناس وهو خارج، وقال لهم بضع كلمات باللغة الفرنسية جعلتهم يواصلون ما كانوا يقومون به من أعمال. ووقف سليما عند ركن مظلم في الشارع وقال: "والآن ماذا تريدون؟".

فأجابته الأنسة برس المسكينة: "ما أقسى قلبك إذ تخاطبني بهذه اللهجة!".

وطأطأ سليمان رأسه وأعطاهما قبلة قصيرة "هاكها! والآن هل رضيت؟".

وهزت الأنسة برس رأسها وأذرفت الدمع وهي صامتة.

وقال لها أخوها: "إن كنت تتوقعين أن أدهش فإن ذلك لم يكن، فقد كنت أعرف أنك هنا، لان واجبي يقتضيني أن أعرف معظم من هنا من الغرباء. وإن كنت لا تريدان أن تعرضي حياتي للخطر فسيري في طريقك بأسرع ما تستطيعين، ودعيني أنا أسير في طريقي، إن لديّ أعمالاً كثيرة وأنا موظف".

وقالت الآنسة برس: "ما عليك إلا أن تقول لي كلمة حنان واحدة قبل أن تذهب".

وقال مستر كرنشر: "انتظر قليلاً! لا تذهب. واسمح لي بان أطلب إليك أن تتفضل عليّ بالإجابة عن هذا السؤال: هل اسمك جون سليمان أو سليمان جون؟".

والتفت إليه سليمان بارتياب شديد.

وقال كرنشر: "قل! تكلم. جون سليمان أو سليمان جون؟ فهي تدعوك سليمان، ومن حقها أن تعرف لأنها أختك. وأنا أعرف أنك جون، فأبي الاسمين هو السابق. وما قولك في اسم برس؟ إن هذا لم يكن اسمك في إنجلترا".

"وماذا تقصد بهذا؟".

"أعرف أن برس لم يكن اسمك، ولكني لا أذكر أي اسم كنت تسمي نفسك به؛ وقد كان للشخص الآخر صديقك اسم قصير جداً، والآن قل لي بأي اسم كنت تسمي نفسك في ذلك الوقت؟".

وقال صوت آخر على غير انتظار: "بارساد!".

وصاح جري: "ذلك هو الاسم! بارساد!".

وقال سدني كارتن: "نعم، بارساد." ثم وقف ويده خلف ظهره هادئاً غير مضطرب.

وقال سدني: "لا ترتاعي يا عزيزتي الآنسة برس، لقد وصلت إلى محل عمل مستر لري مساء أمس، واتفقنا على ألا أظهر نفسي للأسرة إلا حين يتم الأمر على خير وجه، أو حين أكون ذا فائدة. وقد جئت إلى هنا لأتحدث قليلاً مع أخيك، وكنت أحب أن يكون لأخيك عمل أشرف من عمله الحاضر، كنت أرغب إكراماً لك ألا يكون جاسوساً للشرطة".

وكان وجه الجاسوس مصفراً فزاد حينئذ اصفراراً.

وقال: "كيف تجرؤ - ؟".

وقال سدني: "سأنبئك. لقد أبصرتك تخرج من الكنسير جري من ساعة أو أكثر. إن لك وجهًا يمكن تذكره بسهولة، وأنا أذكر وجوه الناس جيداً. وقد أدهشني أن أراك خارجاً من السجن، وتذكرت أنك كنت على صلة بما أصاب مستر دارني قبل الآن في إنجلترا، ولهذا تبعتك، وكنت في أثرك حين دخلت الحانة، وجلست إلى جانبك، واستمعت إلى حديثك، وإلى ما قاله غيرك عنك. وبهذه الطريقة كشفت حقيقة عملك، ثم وصلت شيئاً فشيئاً إلى قرار في أمرك يا مستر بارساد".

"أي قرار؟".

"إنه قرار يضايقك، وقد يكون من الخطورة بمكان أن نتحدث عنه في الشارع. فهل تسمح بأن تصحبي لنقضي بضعة دقائق في مكتب مستر لري؟".

"وماذا يكون لو رفضت الذهاب معك؟".

"أظن أن من الخير لك أن تذهب، وأنت ستندم إن لم تفعل".

وقال الجاسوس وهو ينظر إلى أخته غاضبًا: "أنت الملوثة على هذا كله".

فقال له سديني: "كلا، إن الذي يضطريني إلى أن أصطنع الأدب معك هو احترامي الشديد لأختك ولا شيء غير هذا، فهل تأتي معي؟".

"سأستمع إلى ما تريد أن تقوله، نعم سآتي معك".

"وأقترح أولاً أن نوصل أختك آمنة إلى ركن شارعها. دعيني أمسك بذراعك يا آنسة برس. إن باريس مدينة لا يحسن أن يخرج الإنسان فيها غير محمي، وإذ كان جري هو الآخر يعرف شيئاً عن مستر بارساد فسأدعوه إلى الجيء معنا أيضاً، فهل نحن مستعدون؟ هيا نا إذن!".

ورفعت الآنسة برس عينيها إلى وجه كارتن وهم سائرون، وتوسلت إليه ألا يؤدي أياها مطلقاً. ولاحظت وهي تنظر إليه أن إمارات العزيمة بادية على وجهه، كأنما قد قرر في نفسه أمرًا جلاً ببدله تبديلاً تامًا. ولما

وصلوا إلى ركن شارعها تركوها هناك وسار كارتن أمام الجماعة في طريقهم إلى مكتب مستر لري، ولم يكن يبعد عن ذلك المكان أكثر من بضعة دقائق سيراً على الأقدام. وسار إلى جانبه جون بارساد (واسمه الحقيقي سليمان برس).

وكان مستر برس قد فرغ تَوّاً من تناول طعامه، وجلس أمام نار ساطعة جميلة ينظر إلى لهبها ويفكر في حياته الماضية. فلما دخلوا عليه أدار رأسه نحوهم وظهر دهشته من وجود رجل غريب بينهم.

فقال له سديني: "هذا شقيق الأنسة برس يا سيدي، وهو يدعو نفسه مستر بارساد".

وأعاد الشيخ قول صديقه: "بارساد؟ بارساد؟ يخيل إليّ أيّ أعرف ذاك الاسم والوجه".

وقال سديني في هدوء: "لقد قلت لك يا مستر بارساد إن من السهل أن يتذكر الناس وجهك، تفضل بالجلوس".

ولما أخذ سديني كرسيّاً ليجلس عليه ساعد مستر لري على أن يتذكر ذلك الرجل بقوله له: "لقد كان بارساد شاهداً في محاكمة لندن".

وتذكره مستر لري من فوره، وألقى نظرة مقت شديد على زائرته الجديد.

وقال سدني: "وقد تعرفت الآنسة برس على برساد وتبينت أنه أخوها الحبوب الذي فقدته من زمن طويل، وأقر هو هذه العلاقة. وبعد ذلك أنتقل إلى أخبار أسوأ من هذا الخبر، لقد قبض على دارني مرة أخرى!".

"ماذا تقول؟ لقد تركته من ساعتين لا أكثر سالمًا حرًا، وكنت على وشك العودة إليه".

"لقد قبض عليه مرة أخرى".

"ومتي كان ذلك يا مستر بارساد؟".

"من وقت قريب".

"ومستر بارساد أعرف الناس بهذا، فقد سمعته من وقت قريب يذكر النبأ في حانة، وقد رأى دارني يساق إلى الكنسير جري، وليس في الأمر شك".

وظل مستر لري صامتًا قلقلًا أشد القلق.

وقال سدني: "وأرجو أن يفيد اسم الدكتور مانت ونفوذه في غد كما أفادا اليوم. أتكون المحاكمة غدًا يا مستر بارساد؟".

"أعتقد ذلك".

"وقد تكون الأمور في هذه المرة على غير ما كانت في المرة السابقة، ومن النذر السيئة أن الطبيب لم يستطع أن يمنع القبض عليه".

فقال مستر لري: "لعله لم يعرف الحادث قبل وقوعه".

"ولكن هذا أيضًا إن صح يكون سيء الدلالة. وقصارى القول أن ذلك الوقت في غاية الخطورة، وأن الحاجة ماسة إلى الإقدام على أعمال شديدة الخطورة أيضًا. فليعمل الطبيب عمله ولأعمل أنا عملي. إن حياة الناس أيًا كانوا ليست لها قيمة ما في هذا المكان. وقد يحمل الناس إنسانًا إلى بيته اليوم ولكنه قد يعاد غدًا إلى السجن أو يساق إلى المقصلة. وإذا تحققت أسوأ الاحتمالات فسوف أحتاج إلى معونة صديق في الكنسير جري حيث يحاكم دارني من جديد، وسأستعين بمستر بارساد، وما أشبه الأمر بيني وبينه بلعبة الورق، فإذا كسبت أنا اللعبة فسوف أحصل على معونته".

فأجابه الجاسوس: "وستكون في حاجة إلى أوراق طيبة جدًا إذا أردت الفوز".

"ساكشف لك عن أوراقى. إنك يا مستر لري تعرف نقطة ضعفى، فجننى ببعض البراندى".

ووضع ما طلبه أمامه فشرب منه قدحًا ثم أبعء الزجاجة وهو غارق فى التفكير، وأخذ يتحدث على مهل كأنه لاعب ينظر إلى الأوراق

التي يمسكها بيده، وقال: "إنك يا مستر بارساد جاسوس في خدمة رجال الشرطة، ورسول للجان الجمهورية، ومخبر سري، ولكنك تتسمى باسم زائف! تلك ورقة طيبة، ورقة نافعة لي. ومستر بارساد الذي يعمل الآن في خدمة حكومة فرنسا الجمهورية كان فيما مضى من الأيام في خدمة الحكومة الإنجليزية. وهذه ورقة جد نافعة لي. ولماذا؟ لأن كل إنسان سوف يظن أن مستر بارساد لا يزال في خدمة الحكومة الإنجليزية، ولا يزال يتجسس لحسابها، وأنه عدو لفرنسا في قلبها. وتلك ورقة لا يمكن التغلب عليها. أترى أوراقي يا مستر بارساد؟".

وسأله بارساد: "وكيف تريد أن تلعب بهذه الأوراق؟".

سألعب بأحسن أوراقي أولاً، فأبلغ أقرب لجنة جمهورية أن مستر بارساد عدو الجمهورية وعدو فرنسا، فانظر إلى أوراقك يا مستر بارساد، وتبين ما معك منها، ولا تعجل".

وقرب الزجاجاة منه وصب كأساً وشربها كلها.

"أنعم النظر في أوراقك يا مستر بارساد، وتأن"

ونظر الجاسوس إلى أوراقه فعرف أنها أوراق ضعيفة قليلة الجدوى حقاً. بل لقد كان فيها أوراق خاسرة لا يعرف عنها سدني نفسه شيئاً. فقد طرد بارساد من عمله في إنجلترا وهو التجسس للشرطة لكذبه غير الناجح، ثم انتقل إلى فرنسا ليقوم فيها بعمله الدنيء نفسه لحساب الحكومة

الفرنسية، فكان أولاً يتجسس فيها على بني وطنه في فرنسا، ثم أخذ يتجسس على الفرنسيين. وكانت الحكومة الفرنسية الملكية قد استخدمته جاسوساً على حي سانت أنطوان وعلى آل دفارج، وقدمت إليه معلومات عن الدكتور مانت ليستطيع بها أن يتحدث إلى آل دفارج. وحاول أن يفعل ذلك ولكنه أخفق، وذكر كيف كانت تلك المرأة الرهيبة تطرز حين كان هو يتحدث إليها، ثم رآها بعد ذلك تبلغ معلومات عن كثيرين من الناس تستقيها من ثبتها المطرز، وسرعان ما سيق هؤلاء كلهم إلى المقصلة. وكان بارساد يعرف أن للجاسوس أعداء كثيرين، وأنه غير آمن مطلقاً، وأن أقل ريبة قد تقضي على حياة الإنسان، فلم يكن في يده إذن أوراق رابحة بل كانت أوراقه كلها خاسرة.

وقال له سديني في هدوء: "بيدو أنك لا تحب أوراقك".

والنفث بارساد إلى مستر لري وقال له: "أرجوك أن تقنعه بألا يتكلم. إني أقر بابني جاسوس، وبأن الجاسوسية تعد من الأعمال غير الشريفة، ولكنها عمل يجب أن يقوم به إنسان، ولست أشك في أن هذا السيد لن يكون هو نفسه جاسوساً ومخبراً".

"هل أحصل على معونتك يا مستر بارساد؟ أو هل أذهب إلى أقرب لجنة جمهورية؟ ثم أخرج ساعته وقال: "ليس لديك إلا دقائق قليلة تصل فيها إلى قرار".

فصاح سدني وهو يضرب المنضدة بيده: "لقد عرفته، كلاي! لقد كان ذلك الرجل أمامنا في أولد بيلي".

فقال الجاسوس: "إك مخطئ، لقد مات كلاي في لندن ودفن".

وهنا قام مستر كرنشر على قدميه وخطا إلى الأمام.

وقال: "إني أعرف شيئاً عن ذلك الأمر، أعرف أنه لم يدفن، وأن تلك الجنازة لم تكن جنازة حقة، وأن القبر لم يكن فيه جثة، وأن التابوت كانت فيه حجارة، وأن هذه الجنازة الزائفة قد نظمت حتى يظن كل إنسان أنه مات فيمتنع عن البحث عنه".

فقال مستر لري: "كيف تورطت يا جري، وأنت موظف موثوق به في مصرف تلسن، في مثل هذه الأعمال الرهيبة؟ وكيف عرفت أن التابوت كان يحوي حجارة؟".

"لست أستطيع أن أقول لك ذلك، أو على الأقل لا أستطيعه الآن، ولكنني أعرفه. فانظر إلى وجه هذا الرجل تر أنه يعرف أنني أقول الحق. وليتني أستطيع أن أقتل الرجلين كليهما".

والحق أن وجه مستر بارساد قد امتقع وفمه قد انفتح من شدة الدهشة.

وقال كارتن: "إني أتبين من هذا شيئًا واحدًا، هو أن مستر بارساد صديق لرجل يحيط به سر غامض، رجل مات ثم عاد إلى الحياة. إن هذا لشيء عجاب، ولعلي أقول إن ثمة جاسوسين أجنبيين يعمل كلاهما في السجن، وكلاهما عدو للجمهورية. ويلوح أن هذه أيضًا ورقة رابحة، فهل تلعب يا مستر بارساد؟".

فأجاب بارساد: "لا، بل أسلم، وأقر أن أهل لندن كانوا يكرهونني أنا وكلاي كرهًا اضطررنا معه إلى الهرب. فأما أنا فقد نجوت بصعوبة، وأما كلاي فلم يكن ليستطيع الهرب لو أن هذه الجنازة الزائفة لم تنظم، ولكن الأمر العجيب الذي لا أعرفه هو كيف وصل إلى علم هذا الرجل شيء عن ذلك".

فقال جري: "دعنا من هذا فأنا أعرف وحسبك هذا، وستكون الجنازة التي تشهدها أنت وكلاي جنازة حقة وأرجو أن تكون جنازتكما".

وحول الجاسوس وجهه عنه إلى سديني كارتن "ماذا تريدني أن أفعل؟ إني ذاهب إلى العمل بعد قليل، ويجب عليّ ألا أتأخر عنه. واذكر أنك لا ينبغي لك أن تسأل عني أكثر مما يجب، وأنتك إن طلبت إليّ أن أعرض رأسي للخطر الشديد، فسأرفض ذلك وأبلغ عنك أنت، وقد يكون قبولي ما تعرضه أشد خطرًا عليّ من رفضي إياه. فكلنا في خطر. ماذا تطلب؟".

"لست أطل كثيرًا. إنك تعمل في الكنسير جري وفي وسعك أن تدخله، أليس كذلك؟".

"أقول لك إن الهرب منه مستحيل".

"ومن ذا الذي ذكر الهرب؟ هل تعمل في الكنسيرجري؟".

"أعمل فيه أحياناً".

"وتستطيع أن تذهب إلى هناك متى أردت؟".

"أستطيع الدخول فيه والخروج منه متى أردت".

وملاً كارتن قدحاً آخر من النبيذ، ثم عاد فغير رأيه في شربه
وسكبه سكباً بطيئاً على أرض الحجرة.

"والآن تعال معي يا مستر بارساد إلى الحجرة المجاورة لهذه، ولنقل
كلمة أخيرة على انفراد".

الفصل الحادي والعشرون

سدني كارتن يضع خطته

ولما ذهب كارتن وبارساد إلى الحجرة الأخرى نظر مستر لري إلى جري نظرة الشك والارتياب.

ونادى جري قائلاً: "تعال هنا يا جري".

وتقدمه مستر كرنشر يمشي مشياً جانباً يقدم فيه إحدى كتفيه على الأخرى.

"ماذا كنت زيادة على أنك رسول؟ أظن يا جري أنك كنت تستخدم مصرف تلسن، ذلك المصرف العظيم، لتخفي عملاً آخر غير مشروع. فإذا كنت مثلاً تنتظر أن أحفظ لك شرك -".

فأجابه جري: "أرجو يا سيدي ألا تكون سبباً في إيذاء رجل مسكين مثلي. إن الأطباء يحتاجون إلى أجسام يدرسون عليها، ولا بد أن يحضرها لهم إنسان ما".

وصاح مستر لري: "قبحاً لك. إني أشمئز من رؤيتك".

"لا تقس عليّ يا سيدي فوق ما يجب. إني لم أكن مضطراً لأن أبوح لك بهذا، بل كان في وسعي أن أخفيه عنك، ولم أبح به إلا لقصد حسن".

فقال له مستر لري: "هذا حق، ولا تقل شيئاً غير هذا الآن، وقد أظن صديقاً لك إذا سلكت في مستقبلك خيراً من سلوكك في ماضيك".

وعاد سديني كارتن والجاوسوس في هذا اللحظة، وقال أولهما: "وداعاً يا مستر بارساد، لقد رتبنا أمورنا، وليس لك ما تخشاه مني".

ولما خرج بارساد سأل مستر لري كارتن عما فعله معه.

"لم أفعل شيئاً كثيراً. لقد اتفقت معه على أن يمكنني من الوصول لي دارني في السجن إن كان لا بد من ذلك".

فقال له مسرت لري: "إن هذا وحده لن يفيد".

"ولم أقل قط إنه سيفيده".

وجلس مستر لري يحدق في النار. لقد كان وقتئذ رجلاً طاعناً في السن ممتلي القلب عطفاً على لوسي وقلقاً على زوجها، وتساقطت الدموع من عينيه.

فقال له كارتن: "لا تخبر لوسي بما اتفقنا عليه، فقد تتصور له ألف سبب يكفي واحد منها لأن يزيد متاعبها. وخير لي ألا أراها مطلقًا، فإنني أستطيع أن أقوم بما تستطيع يداي أن تقوموا به من عمل تافه لمساعدتها من غير أن أراها، وأرجو أن تكون معتزًا بزيارتها، وما من شك في أنها جد بائسة في هذه الليلة".

"إني ذاهب لزيارتها الآن على الفور".

"يسرني ذلك، فهي تعتمد عليك كثيرًا، وكيف تراها؟"

"قلقة بائسة، وكلنها جميلة"

وقال كارتن وهو يتنهد تنهدًا عميقًا. "آه" وبعد ان سكت بعض الوقت واصل حديثه قائلاً:

"هل وصلت أعمالك هنا يا سيدي إلى نهايتها؟"

"نعم، ولقد أدت هنا كل ما في وسعي أن أؤديه من الأعمال، وكنت أرجو أن أغادر الآخرين في أمان تام، ولقد حصلتُ على إذن بالسفر وكنت على استعداد للرحيل".

"وسكتا كلاهما"

وقال كارتن: "إن وراءك حياة طويلة يا سيدي ترع ببصرك إليها".

"إني في الثامنة والسبعين من عمري"

"وكنت في حياتك كلها نافعا محترما موثوقا بك؟"

"لقد - ظللت أعمل مذ كنت غلاما، ولكني لم أتزوج، وأحس الآن بالوحدة بعض الشيء، وليس لي أحد يبكي علي".

"ألا تبكي عليك لوسي؟ وابنتها؟"

"نعم، نعم، والحمد لله على ذلك، إني له أكن أقصد ما قلته".

"ولو انك لم تنل في حياتك حب غيرك وإجلالهم، ولو انك لم تفعل خيرا يذكرك الناس به، لكنت أعوامك الثمانية والسبعون ثمانيا وسبعين لعنة، أليس كذلك؟"

فأجابه مستر لري بقوله: "بلى، إني أظن ذلك".

وختم كارتن الحديث عند هذه النقطة بان وقف ليساعد مستر لري على ارتداء معطفه.

"سأسير معك يا مستر لري إلى باب دارها، وسأراك في المحكمة غدا، فأمسك بذراعي يا سيدي".

ونزلا على الدرج، وخرجا إلى الشوارع، ولما وصلا إلى باب دار
لوسي دخل مستر لري، وانتظر كارتن قليلاً، ثم عاد فالتفت إلى الباب
ومسه.

وقال: "لقد كانت تخرج من هنا وهي ذاهبة إلى السجن في كل
يوم، وكثيراً ما وطئت بقدمها هذه الحجارة فلا تتبعن خطاها".

وكانت الساعة العاشرة مساء حين وقف تحت مصباح وكتب شيئاً
بقلمه الرصاص على ورقة صغيرة، ثم سار خلال شوارع مظلمة قدرة،
ووقف أمام حانوت تباع فيها الأدوية، ووضع الورقة أمام صاحب
الханوت.

وقال له الرجل وهو يعطيه لفة صغيرة: "ستكون حريصاً في
استخدامه يا مواطن؟ إنك تعرف أثره".

"كل المعرفة".

ووضعه في جيبه بعناية وغادر الحانوت.

وأخذ كارتن يجوس خلال شوارع المدينة طوال الليل، فلام أشرفت
شمس الصباح نام على شاطئ نهر السين. ولما استيقظ وقف يرقب الماء
برهة وجيزة، ثم اتخذ طريقه عائداً إلى حجرات مستر لري. وكان الشيخ
الطيب قد غادرها ذاهباً إلى المحكمة، فشرب كارتن قليلاً من القهوة،
وأكل بعض الخبز، واغتسل وبدل ملابسه، وخرج إلى موضع المحكمة،

وكان فيه مستر لري، وكان فيه الدكتور مانت، وكانت فيه لوسي تجلس إلى جانب أبيها.

ولما جيء بزوجها ألفت عليه نظرة مشجعة تفيض بالحب والحنان، عاد منها الدم إلى وجهه، وأبرقت عيناه. ولم يكن ثمة شيء من النظام أمام هذه المحكمة الظالمة، ولم يكن متهم أمامها يثق بأنه سيحاكم محكمة معقولة، وكان واضحًا من نظرات القضاة والمخلفين الوحشية أن شيئًا من الرحمة لا يمكن أن ينتظر منهم في ذلك اليوم.

وقرئت النقط الرئيسية في القضية على المحكمة.

"تشارلس إفريمند المدعو دارني أطلق سراحه بالأمس ثم اتهم مرة ثانية، وأعيد إلى السجن بالأمس. متهم بأنه عدو للجمهورية ونبيل ومن أفراد أسرة ارتكبت جرائم القسوة الشنيعة على الشعب".

وسأل رئيس المحكمة: "هل هو متهم في السر أو في العلن؟".

"في العلن يا جناب الرئيس".

"ومن الذي يتهمه؟"

"ثلاثة. إرنست دفارج، وتريزا دفارج زوجته، وألكسندر مانت،

طبيب".

وعلت ضجة في المحكمة شوهه الدكتور مانت في خلالها مصفر
الوجه مرتجفاً واقفاً حيث كان يجلس.

"يا جناب الرئيس، إني أعلن لك أن هذا كذب، فأنت تعرف أن
المتهم زوج ابنتي، ومن ذا الذي يقول إني أتهم زوج ابنتي؟"

"اهدأ يا مواطن مانت استمع لما سيأتي بعد، وإلى أن يكون ذلك
الزم الصمت!".

وعلا الهتاف مرة أخرى حين جلس الطبيب وشفنا ترتجفان.

ولما عادت المحكمة إلى الهدوء وقف دفارح وشرح قصة سجن
الطبيب وحاله حن أطلق سراحه وعُهد به إليه.

"لقد أدت خدمات جلييلة في الاستيلاء على الباستيل يا مواطن
دفارح؟"

"أعتقد ذلك".

"قل لنا ما فعلته في ذلك اليوم أيها المواطن".

فأجاب دفارح وهو يطل على زوجته: "عرفت، عرفت أن ذلك
المواطن كان مسجوناً في غرفة تسمى رقم ١٠٥ في البرج الشمالي، عرفت
ذلك منه هو نفسه إذ لم يكن يعرف له اسماً غير ١٠٥ البرج الشمالي. ولما

سقط الباستيل ذهبت إلى تلك الحجرة الانفرادية يرشدني أحد الحراس،
وفحصت عن الحجرة بعناية عظيمة فوجدت في ثقب المدخنة ورقة
مكتوبة، وهي بخط الدكتور مانت، هأنذا أقدم هذه الورقة المكتوبة بخط
الدكتور مانت إلى الرئيس

"فلتقرأ!"

وقرئ ما في الورقة وسط صمت رهيب فإذا هو:

الفصل الثاني والعشرون

قصة الطبيب

أنا ألكسندر مانت أكتب هذا في سجن الباستيل في عام ١٧٦٧، وفي نيتي أن أخفيه في شق المدخنة لعل إنساناً يجده بعد موتي. وأنا الآن كامل العقل، ولست مجنوناً (وإن كنت أخشى أن أفقد عقلي بعد قليل) وما أكتبه هو الحق، وأكتبه بمسماز صدى أتخذه قلماً، وأستخدم للكتابة به دمي مع سناج المدخنة.

بينما كنت أسير على شاطئ نهر السين في ليلة غائمة قمرية في شهر ديسمبر من عام ١٧٥٧ إذ أقبلت عربة من خلفي، ولما اقتربت مني أطل إنسان برأسه من نافذتها، وأمر رجل العربة أن تقف. ثم ناداني الصوت باسمي وخرج منها رجلان لاحظت أنهما شديداً الشبه أحدهما بالآخر. فقد كانا متشابهين في طول القامة وفي الهيئة والصوت والوجه.

وقال أحدهما: "أنت الدكتور مانت؟"

فأجبت: "نعم سيدي أنا هو؟"

وقالا: "لقد ذهبنا إلى بيتك، ونُبتنا بالمكان الذي قد نجدك فيه؛ نرجوك أن تدخل العربة".

فأجبتهما: "إن من عادتي أن أسأل عن حقيقة الحالة التي أَدعى لها، وعن اسم الذين يطلبون معونتي".

فقالا وقد قف كل منهما في ناحية مني: "إنّا رجلان من أسرة طيبة، وأما عن حقيقة الحالة فإنك ستراها بنفسك". ولم يكن لي بد من إطاعة أمرهما.

وخرجت العربة من الباب الشمالي وانحرفت عن الطريق الرئيسي بعد ميلين منه ثم وصلت إلى بيت منعزل.

وسمعت صراخًا خارجًا من حجرة عليا فيه، وأخذت إلى تلك الغرفة فوجدت فيها امرأة محمومة حمى شديدة تهذي. وكانت بارعة الجمال وفي شرخ الشباب، وكان شعرها مقتلعا وذراعاها مشدودتين إلى جانبها بقطعة من الحرير. ورأيت على طرف الحرير حرف إ (E) وكانت عينها تزوغان مضطربتين، ولم تنقطع عن الصراخ بصوت عال قائلة: "زوجي، أي، أخي" ثم تعدد "واحد، اثنان، ثلاثة..." حتى تصل إلى عشر، ثم تبدو كأنها تنصت، ثم تعود إلى الصراخ والعد وهكذا دواليك.

وسألت: "كم من الزمن قضت على هذه الحال؟"

فقال أكبر الأخوين: "من مثل هذا الوقت في الليلة الماضية".

وأعطيت الفتاة دواء منومًا، وجلست إلى جانب الفراش لأرقب النتيجة. ولما هدأت بعد نصف ساعة من ذلك الوقت قال لي أكبر

الأخوين: "إن ثمة حالة أخرى"، ثم أخذ بيده مصباحًا وسار أمامي إلى حجرة ثانية وهي مكان يتخذ لحزن الدريس وخشب الحريق، وكانت الخيل من تحته.

وكان شاب في نحو السابعة عشرة من عمره مطروحًا على الأرض، يمسك صدره بيده اليمنى وعينه تروغان في اضطراب، وكان في وسعي أن أتبين من فوري أنه يحتضر. ولما سمح لي أن أرفع يده شاهدت أن الجرح كان من ضربة سيف أصابته من نحو أربع وعشرين ساعة قبل ذلك الوقت.

وسألت: "كيف حدث هذا؟"

"ليس هو إلا صبيًا من صبيان القرية، اضطر أخي إلى أن يستل عليه سيفه"، ولم يكن في صوت القائل رحمة أو أسف.

واتجهت عينا الغلام نحوي وسألني: "هي... هل رأيتها أيها الطبيب؟"

"لقد رأيتها".

"هي أختي. أحبت شيئًا في القرية، وكان مريضًا في ذلك الوقت، فتزوجته لكي تعني به. ثم رأها أصغر الأخوين وأرادها لنفسه. وأرغم الرجل على أن يشتغل طول الليل، واضطر في الصباح إلى أن يجر عربة. وفي ظهر أحد الأيام حين بدأت الساعة تدق من دقائق الساعة ثم مات. ونقلوها

بعيداً عنا. فلما سمع بذلك والدي مات كمدماً؛ ونقلت أنا أختي الصغرى إلى مكان أمين، ثم اقتفيت أثر الأخ إلى هذا المكان، وتسلمت جدران المنزل في الليلة الماضية، وبيدي سيف، وسمعتني وجرت إلى داخل الدار، ثم جاء هو فأخذتُ أضرب بسيفي نحوه حتى اضطر إلى أن يستل سيفه لينقذ حياته. وكانت هذه هي النتيجة: ارفعني أيها الطبيب. أين هو؟"

ورفعته؛ وجمع الشاب فجأة كل ما بقي فيه من قوة ووقف.

وقال: "يا مركيز. إني ادعوك أنت وأهلك وأنتم الباقية من سلالة خبيثة لتكفروا عن هذه الذنوب. إني أرسم هذا الصليب الدموي لأدمغك به، وأدعو أخاك وهو أخبث شخص من سلالة خبيثة ليكفر عن هذا الذنب. إني أرسم هذا الصليب الدموي عليه لأدمغه به"؛ وغمس يده مرتين في جرح صدره ورسم في الهواء صليباً، ثم سقطت يده، ولما وضعته على الأرض عرفت أنه مات.

وعدت بعدئذ إلى الفتاة، وكانت لا تزال تصرخ، وأيقنت أن صراخها سيدوم بضع ساعات، وأنه لن ينتهي إلا بالموت.

وجاء الأخ الأكبر وجلس إلى جانبي.

وقال لي: "أيها الطبيب، إنك شاب تريد أن تبني مستقبلك، وخير لك ألا تذكر شيئاً عما شاهدت وسمعت في هذا المكان".

ولم أجبه بشيء.

وماتت الفتاة بعد ساعتين من ذلك الوقت. وكان الأخوان يجلسان في الطابق الأسفل، وأخرج أكبرهما كيسًا مملوءًا بالذهب وعرضه عليّ.

فقلت له: "أرجو المعذرة. فلست أقبله في هذه الظروف".

ونظر كل منهما إلى الآخر، وانحنيت لهما مسلمًا، وافترقنا دون أن ينطق واحد منا بكلمة أخرى.

وفي الصباح الباكر من اليوم الثاني ترك كيس الذهب في منزلي، وكنت قد قررت أن أكتب إلى الوزير لأبلغه هذا الحادث. ولكنني لم أكد أفرغ من الرسالة حتى قيل لي إن فتاة تريد أن تقابلني. وتبينت أنها عرفت بطريقة ما أهم وقائع القصة. وكان زوجها هو الأخ الأصغر، ولكنها لم تكن سعيدة في زواجها. ولم تكن تعرف أن الفتاة قضت نحبها، ولكنها كانت ترجو أن تقدم المعونة في الحفاء بطريقة ما. وكانت تعرف أخت الشاب الصغرى وتريد أن تساعدنا أيضًا؛ وأخبرتها بكل ما أعرف، وقلت لها إني لا أعرف مكان الأخت الصغرى. ولما صحبتها إلى الباب شاهدت في عربتها ولدًا في نحو الثالثة من عمره.

وقالت لي: "إني أيها الطبيب أحب أن أفعل كل ما في وسعي لهذه الأسرة التي ظلمت هذا الظلم الصارخ، وإذا لم أستطع فسيكون هذا لعنة تحل عليه. وأخشى أنه قد يضطر أن يكفر عن هذه الذنوب يومًا ما إن لم أفعل شيئًا لهذه الأسرة. إن لديّ بعض الجواهر، وسأمره وأنا على فراش الموت أن يقدمها لهذه الأسرة التي أساء إليها أبوه".

ثم قبّلت الولد وقالت: "ستكون وفيًا يا بني تشارلس؟"

فأجاب الطفل في شجاعة قائلاً: "نعم".

وذكرت في أثناء حديثها اسم زوجها ظناً منها أني أعرفه، ولكني لم أغير شيئاً في الرسالة التي كنت أكتبها إلى الوزير، وألصقتها وقدمتها بنفسي في ذلك اليوم.

وفي تلك الليلة عينها جاء رجل في ثياب سوداء ودق الجرس وطلب أن يقابلني. وفتح الباب خادمي وهو شاب يدعى إرنست دفارج، وسار الطارق وراء دفارج إلى الطابق الأعلى حيث كنت اجلس مع زوجتي العزيزة.

وقال الرجل: "إن ثمة حالة عاجلة في شارع سانت أنريه ولديّ عربة في انتظارك".

وما كدت أخرج من الباب حتى ألقيت خرقة على فمي من خلفي، وأوثقت ذراعي، وبرز الأخوان من الظلام على الجانب الآخر من الطريق، وأخرج أكبرهما (المركيز) من جيبه الرسالة التي كتبتها إلى الوزير، وحرقها في لهب مصباح العربة، وداس بقدمه الرماد في الطين، ولم ينطق أحد بكلمة، ثم أقلتني العربة إلى هذا السجن حيث أدفن حياً.

ولم يرسل لي هؤلاء الرجال طوال هذه السنين خبراً ما عن زوجتي،
ولست أعرف أحية هي أم ميتة، وقد خلت قلوبهم من الرحمة، ولذلك لن
ينالوا من الله رحمة، وستكون علامة الصليب الأحمر نقمة عليهم.

وأنا ألكسندر مانت أصب لعنتي على الأخوين وعلى أبنائهما إلى
آخر فرد من سالتهما الخبيثة...

ولما انتهت قراءة هذه الورقة علت في ساحة المحكمة من الحاضرين
صيحة رهيبة - صيحة تطلب الدماء.

ولم يبق وقتند حاجة للدهشة من سبب احتفاظ دفارج وزوجته
بهذه الورقة سرّاً من الأسرار. لقد احتفظا بها إلى أن يحين الوقت الذي
يحدث فيه أعظم آثارها. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الخيرة في سبب كره
سكان حي سانت أنطوان لأسرة إفريمند كرهاً لا يغني ولا تنقص حدته.

وهمست مدام دفارج وهي تبتسم إلى المرأة الجالسة بجوارها (وهي
امرأة تسمى الانتقام) قائلة "إن للطبيب نفوذاً كبيراً على من حوله. أليس
كذلك؟ أنجه أيها الطبيب، أنجه إن استطعت".

وعلت ضجة كلما أعطى أحد الخلفين صوته. وأعطى صوت ثان
وثالث وعلت ضجة ثم ضجة وصدر الحكم بالإجماع: بعودة إفريمند
المسمى دارني إلى السجن وإعدامه في خلال أربع وعشرين ساعة.

الفصل الثالث والعشرون

مستر لري يعد

ومدت لوسي يدها إلى زوجها.

"دعوني أمسه مرة واحدة! دعوني أقله! أقبله! أيها المواطنون الصالحون ارحمونا!"

وكان بعض المواطنين الصالحين قد خرجوا ليرفعوا عقيرتهم بالصياح في وجه المسجونين، وكان بارساد من بين الذين بقوا في حجرة الجلسة بالمحكمة.

فقال: "دعوها تقبل زوجها. إن ذلك لن يستغرق إلا لحظة".

ووافقوا على ذلك وهم صامتون، وتقدمت هي إلى حيث كان تشارلس واقفاً، وسار أبوها ورائها وأوشك أن يخر راکعاً على ركبتيه أمامها، ولكن دارني أمسك به وصاح:

"لا، لا! ماذا فعلت حتى ترقع أمامنا؟ إنا لنعرف الآن ما قاسيت حين عرفت من أنا، ونعرف كيف تغلبت على عواطفك من أجل ابنتك التي تعزها، ونحن نشكرك من أعماق قلوبنا والله معك!"

ولما أخذ داريني وقفت زوجته ترنو ببصرها خلفه، وتمسك كلتا يديها بالأخرى، وتبدو على وجهها نظرة الحب. ولما اختفى عن عينيها التفتت وسقطت عند قدمي والدها.

وحينئذ خرج سدني كارتن من الركن المظلم الذي كان ينتظر فيه، ورفعها، وحملها إلى العربة. ولما وصلوا إلى المنزل حملها إلى داخله حيث أخذت ابنتها والآنسة برس تبكيها عليها.

وقال كارتن: "أتسمحون لي أن أقبلها قبل أن أغادر الدار؟" ثم انحنى ومس وجهها بشفتيه، وانتقل إلى الحجرة المجاورة لحجرتها ومن ورائه مستر لري والطبيب.

وقال كارتن: "لقد كان لك نفوذ عظيم بالأمس يا دكتور مانت، وعليك أن تبذل ما في وسعك من الآن إلى غد لتنجيه".

"في نيبي أن أحاول ذلك، ولن أقعد عنه لحظة واحدة".

"حسن، إن الأمل في النجاة قليل، ولن أنتظر من عملك نتيجة، ولكنني أحب أن أعرف ما يؤدي إليه سعيك. ومتى تتم مقابلتك لولادة الأمور؟".

"في خلال ساعة أو ساعتين".

"وإذا زرت مستر لري في الساعة التاسعة فهل أعرف وقتئذ ماذا

فعلت؟"

"نعم؟"

"وفقك الله".

وتبع مستر لري كارتن إلى الباب الخارجي، ولمس بيده كتف سدني وهو ذاهب فالتفت هذا إليه.

وقال كارتن بنغمة حزينة: "ليس لدي أمل".

"وكذلك أنا".

"فلن يجرؤ أحد على إنقاذه بعد أن صاح الناس معبرين عن شعورهم على النحو الذي عبروا عنه به".

وأجاب كارتن: "نعم سيموت، وليس ثمة أمل حقيق في نجاته"، ثم نزل بخطا ثابتة على الدرج.

ووقف في الشارع ولم يقرر بعد بصفة قاطعة أين يذهب، وقال في نفسه: "يحسن بي أن أظهر نفسي. إن من الخير أن يعرف أولئك الناس أن في هذا المكان رجلاً مثلي، وقد يكون هذا استعداداً لا بد منه" ثم اتجه نحو سانت أنطوان.

وتناول طعامه، ولم يشرب معه خمراً قوياً لأول مرة في السنين الكثيرة الماضية. ثم ذهب إلى حانة مسيو دفارج. فلما دخلها، واتخذ مكانه فيها، وطلب في لغة فرنسية ركيكة قليلاً من النبيذ، ألقت عليه مدام

دفارح نظرة ليس فيها شيء من المبالاة والاهتمام، ثم أتبعها بنظرة حادة
ثم بأخرى أكثر منها حدة.

ثم تقدمت مدام دفارح من كارتن نفسه وسألته عما طلب.

فكر ما كان قد قاله من قبل.

فقال مدام دفارح: "إنجليزي؟"

"نعم يا سيدتي، أنا إنجليزي."

وتركته لتحضر النبيذ وقالت لزوجها: "أقسم لك أنه شبيه كل
الشبه بإفريمند!"

"لا شك في أنه شبيه به بعض الشبه".

وقال جاك ٣ وكان واقفاً بجوارهما: "إن إفريمند يشغل بالك كثيراً"

وأخذوا ينظروا إلى كارتن وهم صامتون، وكان هو يتظاهر بأنه يقرأ
صحيفة بصعوبة ويتتبع الكلمات بإصبعه.

وقال جاك ٣: "إن ما تقوله السيدة حق، ولم نقف عند إفريمند؟"

وقال دفارح: "لا بد للإنسان أن يقف عند حد ما".

وقالت السيدة: "سأقف حين لا يبقى منهم احد على قيد الحياة".

وقال دفارح وهو مضطرب بعض الشيء: "فكرة طيبة، ولكن الطبيب قاسى كثيراً من الآلام، ولقد شاهدتُ وجهه حين قرأت الورقة وشاهدتُ ابنته".

وقالت مدام دفارح "لقد شاهدت وجهه وشاهدت ابنته. شاهدتها اليوم وشاهدتها في أيام أخرى. شاهدتها في الشارع بجوار السجن. فلتحذر. وأما أنت فإنك تريد أن تنقذ هذا الرجل، تريد أن تنقذه الآن إن استطعت".

فأجابها دفارح: "لا".

وقالت زوجته: "استمع إليّ، إن هذه الأسرة قد كتبت أسماؤها في ثبتي من زمن بعيد لقسوتها، ولما جاء زوجي بالورقة التي وجدها في سجن الباستيل قرأناها هنا في ضوء هذا المصباح. ولما فرغنا من قراءتها أبحث له بسر هو أن تلك الأسرة التي أساء إليها الأخوان إفريمند أسرتي، وأن هذا الأخ الذي قتلاه أخي وأن أخته أختي".

وقال دفارح: "هذا صحيح".

"إذن فقل لغيري أين يقفون ولا تقل ذلك لي!"

ودخل الحانة أناس آخرون وتفرقت الجماعة وأدى الرجل الإنجليزي ثمن نبيذه وسار في طريقه.

ولما وصل إلى حجرة مستر لري مرة أخرى وجد هذا الشيخ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً وهو قلق مضطرب. أما الدكتور مانت فلم يشاهده أحد منذ غادر المصرف في الساعة الرابعة. وظلاً ينتظرانه عبثاً حتى الساعة العاشرة، ثم ذهب مستر لري ليزور لوسي، وجلس مستر كارتن وحده إلى جانب النار في حجرة مستر لري.

وعاد مستر لري حوالي الساعة الثانية عشرة، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى سمعا وقع قدمي الدكتور مانت على الدرج، ولم يكذ يدخل حتى تبينا أن لم يبق شيء من الأمل.

ولم يعرف قط هل قابل أحداً أو أنه كان طوال الوقت يطوف في الطرقات، ولم يوجها إليه سؤالاً ما لأن وجهه نطق لهما بكل شيء.

وقال: "لا أستطيع العثور عليها، أين هي؟ أين دكتي؟"

ونظر كلاهما إلى الآخر وقلباهما يتفطران جزعاً.

وصاح الطبيب: "هيا، هيا، دعوني أبدأ العمل، أعطوني عملي".

واتضح لهما كل الوضوح أن من العبث مناقشته، فوضع كلاهما يده على كتفه، وأقنعه بالجلوس أمام النار، ووعداه أن يأتيها له بعمله بعد وقت قصير، وارتقى على الكرسي، وأخذ ينظر إلى النار والدموع تترقق في عينيه.

ونظر كلاهما إلى صاحبه مرة أخرى.

وقال كارتن: "لقد ضاعت آخر فرصة، ويحسن أن نأخذه إليها. ولكني أريد أن تستمع إليّ لحظة قبل أن تذهب. ولا تسألني لم أطلب إليك أن تعدني وعدًا، فإن لديّ لذلك سببًا قويًا".

وقال مستر لري: "لست أشك في ذلك، فهات ما عندك".

وانحنى كارتن ليرفع سترة الطبيب، وكانت قد سقطت على أرض الحجر، وبينما هو يفعل هذا إذ سقطت علبة صغيرة من جيب الطبيب، فأخذها كارتن بيده، فوجد فيها ورقة صغيرة، ففتحتها وصاح: "الحمد لله".

وسأله مستر لري: "ما هذا؟"

"لحظة واحدة! دعني أتكلم على هذا في موضعه. ثم وضع يده في جيبه وأخرج منه ورقة أخرى وقال: "أولاً - هي الورقة التي ساخر جيبها من المدينة. انظر إليها تر فيها - سديني كارتن إنجليزي؟"

وامسكها مستر لري بيده وهو يحدق في وجه كارتن.

"أبقها لي معك إلى الغد. إنك تذكر أنني سأقابل تشارلس غدًا، ويحسن بي ألا آخذها معي إلى الحجر. والآن خذ هذه الورقة التي كان الدكتور مانت يحملها معه. إنها ستمكّنه هو وابنته وابنتها الصغيرة من مغادرة هذه المدينة في أي وقت كما ترى".

"نعم".

وقال كارتن: "والآن استمع إليّ. إن لديّ من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن هذه الورقة قد تؤخذ من الدكتور مانت. وهم معرضون لخطر شديد، فقد سمعت مدام دفارج تتحدث عنهم هذه الليلة. لا تخف كل هذا الخوف، فإنك ستنجيهم جميعاً".

"أرجو أن أستطيع ذلك، ولكن كيف السبيل إلى هذا؟"

"سأخبر بهذا. إن الأمر في يدك أنت، ولا يمكن أن يكون في يد خير من يدك، واكبر الظن أنهم آمنون بضعة أيام قليلة".

"نعم".

"ولديك المال وفي وسعك أن تبتاع في أسرع وقت وسائل السفر إلى شاطئ البحر، فأعد خيلك في صباح الغد للسفر في الساعة الثانية بعد ظهر غد".

"سأفعل هذا!"

"إنك رجل نبيل الطبع. حدثها في هذه الليلة عما تعرفه من الخطر المهدق به وبأبيها وابنتها، وقل لها إنها لا بد لها من مغادرة باريس، وإن ذلك كان آخر رغبات زوجها. وقل لها إن هذا الأمر يقف عليه أكثر مما يمكن أن تعتقده أو تأمل فيه. وأعدّ كل شيء هنا في هذا الفناء، وحتى أنت نفسك خذ مكانك هنا في العربة، ولا تنتظر شيئاً سوى أن يُشغل مكاني، ثم سر في طريقك إلى إنجلترا!"

"إني أفهم أن عليّ أن أنتظرِكَ مهما تكن الظروف؟"

"إن معك ورقتي فيما معك من الأوراق، فلا تنتظر إلا أن يشغل

مكاني".

"وإذن سيكون إلى جانبي شاب؟"

"نعم سيكون إلى جانبك، وعدني أن تتبع تعليماتي بنصها".

"لك هذا؟"

"قم بواجبك وسأقوم أنا بواجبي! والسن أستودعتك الله!"

وأعان كارتن مستر لري على أن يأخذ الطبيب لابنته، وتركهما

عند مدخل الدار، وبقي هناك وحده بضع دقائق وهو ينظر إلى الضوء

الذي في نافذة حجرة لوسي. وقبل أن يغادر مكانه دعا لها بخير من أعماق

قلبه للمرة الأخيرة.

الفصل الرابع والعشرون

سدني كارتن يملي رسالة

لم يكن تشارلس دارني هو وحيد في سجنه أمل في النجاة، وقد عرف بعد أن استمع إلى ورقة الطبيب تقرأ، وسمع صراخ الجماهير، أن النفوذ الشخصي لا يستطيع قط أن ينجيه. وأيقن أنه هالك لا محالة، لا لذنب جناه هو، بل لجرائم لا تحصى اقترفها أفراد من أسرته ومن غير أسرته من النبلاء ضد ملايين من عامة الشعب.

ولكن ما أصعب الموت على نفس الإنسان. ما أصعب أن يترك وراءه للمرة الثانية، وأن يترك أهد الدهر، الزوجة الحبيبة والطفلة التي احتضنها بين ذراعيه بعد هذا الفراق الطويل. لكن كان من أسباب السلوى له أن يذكر أن ليس له ما يخجل منه في المصير الذي قدر له أن يلاقيه، وأن خلائق غيره لا حصر لهم لم يرتكبوا جريمة يسلكون في كل يوم هذه السبيل نفسها، ويسلكونها في ثبات إلى غايتها. ولما هدأ بعد هذه السلوى جلس يكتب رسالته الأخيرة إلى من يجب.

فكتب إلى لوسي:

"... لم أكن أعلم قط بسجن أبيك حتى حدثني عنه، ولم أكن أعلم أن عمي وأبي هما اللذان ظلما هذا الظلم الشنيع. لقد أخبرت والدك باسمي الحقيقي - إفريند، ولكنه طلب إليّ ألا أبح لك بهذا الاسم، وسمح أن أتزوج بك. وما من شك في انه ظن أن الورقة المخبأة في سجن الباستيل قد أعدمت - أو لعله قد نسيها. واس أباك ولا تدعيه يلوم نفسه أي لوم، وانس أحزانك، وهي حياتك له وللعناية بطفلتنا، وسنلتقي كلنا في يوم من الأيام في ذلك العالم السعيد عالم ما بعد الموت".

* * *

وكتب رسالة أخرى إلى الطبيب نفسه يعهد فيها بزوجته وابنته إلى عنايته، ويحثه على أن يرعاها (ظناً منه أن هذا قد يحول بين الطبيب وبين فقد قواه العقلية مرة أخرى).

وكان آخر ما كتب من الرسائل إلى مستر لري يشرح له فيها جميع مصالحة الدنيوية، ويشكر له فيها صداقته الأبديّة، غير أنه لم يفكر قط في سدني كارتن، فقد شغل عقله بتفكيره في غيره من الناس حتى لم يبق فيه موضع يشغله بالتفكير فيه.

وفرغ تشارلس دارني من كتابة هذه الرسائل قبل أن تطفأ الأنوار. ولما أظلمت الحجرة وقد ظن أنه قد فرغ من هذا العالم. ولكن العالم، العالم الساطع الذي كان يحبه، عاد إليه في نومه المضطرب، فحلم أنه عاد إلى البيت في سوهو بلندن حراً سعيداً، وأن لوسي أخذت تحدّثه بأن ما رآه

كان حلمًا مزعجًا. وأنه لم يفارقها قط. ثم ظل مستلقياً فترة من الزمن، ثم كان بين اليقظة والنوم فترة أخرى، ومرت الساعات الطوال في ببطء.

ولما لاحت أنوار الصباح الأولى آخر الأمر، وطرقت الأشباح القائمة من عقله، أدرك أنه وصل إلى آخر يوم من أيام حياته، وأنه هو وواحدًا وخمسين غيره لن يروا صباحًا غير ذلك الصباح.

وعرف الطريقة التي سيموت بها، ولكنه لم ير قط تلك الآلة التي ستقضي على حياته. وبدأ يفكر في أمرها، فيما عسى أن يكون شكلها، وفي أية ناحية سيدار وجهه، وهل يكون هو بين الأولين أو الآخرين، وأخذت هذه الأفكار وأفكار أخرى كثيرة تتردد في عقله حين أخذت ساعات الصباح تمر على مهل.

وشرع يغدو ويروح في الحجرة، ودقت الساعات الأعداد التي لن يسمعها مرة أخرى. ودقت الساعة التاسعة والساعة العاشرة والحادية عشرة كلها إلى غير رجعة.

وهذا وقتئذ عقله وأخذ يردد لنفسه في هدوء أسماء من يجب ويدعو لهم بخير.

وأدبرت الساعة الثامنة عشرة إلى غير رجعة.

وكان مما يل له إن آخر ساعات حياته هي الساعة الثالثة، ولكنه كان يعرف أنهم سيجيئون إليه قبل ذلك الوقت لأن العربات تقضي وقتًا

طويلاً في سيرها الثقيل البطيء في الشوارع، فاعتقد أنه لم يبق عليه أن ينتظر أكثر من ساعتين أخريين أو نحوهما، وأخذ يقوي قلبه حتى يستطيع فيما بعد أن يقوي قلب غيره أثناء سيرهم جميعاً في شوارع المدينة.

وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً وهو هادئ مطوي الذراعين على صدره، وسمع الساعة تدق الواحدة دون أن يدهش لذلك، وحمد الله على ما وهبه من هدوء العقل ثم قال في نفسه: "لن أنتظر أكثر من ساعة واحدة"، ثم أخذ يسير في الحجرة من جديد.

ثم وقف إذ سمع وقع أقدام خارج الباب، ووُضع المفتاح في اقفل وأدير، فلما فتح الباب قال إنسان بصوت خافت: "إنه لم يريني هنا قط، فقد ابتعدتُ دائماً عن طريقه. ادخل وحدك، وسأنتظر هنا، ولا تُضع شيئاً من الوقت".

ثم فتح الباب بسرعة وأوصد، ووقف أمامه في ذلك المكان سدني كارتن وجهًا لوجه، وعلى شفثيه ابتسامة لطيفة، وإصبع من أصابعه مرفوعة.

وأحاطت بسدني في ذلك الوقت هالة براقعة عجيبة، ظن تشارلس معها لحظة من الزمان أنه يرى طيف خيال، ولكنه تكلم، وكان الصوت صوت سدني كارتن، وكانت اليد التي قبضت على يده يد كارتن بلا نزاع.

وقال له كارتن: "لقد كنت أنا من بين سائر الخلق على هذه الأرض الرجل الذي لا تتوقع قط أن تراه في هذا المكان، أليس كذلك؟"

"لم أكن أستطيع أن أصدق أنك أنت، ويصعب عليّ أن أصدق ذلك الآن"، ثم سأله وهو قلق: "لعلك لست سجيناً؟"

"لا، إن لي بالصدفة سلطاناً على أحد الموظفين في هذا المكان، وبفضل هذا السلطان تراني واقفاً أمامك، إني آت من عندها - من عند زوجتك يا عزيزي وإني -"

وامسك السجين بيده وواصل مارتن حديثه: "وإني آتيك منها برجاء عاجل إلى أقصى حد، فهي ترجوك بحق حبك إياها أن تفعل بالضبط ما أطلبه إليك، وليس لك أن توجه إليّ أسئلة، لأني لا أجد وقتاً أجيبك فيه عنها، بل عليك أن تفعل ما اطلبه بالضبط، لأن ذلك أمرها هي اخلع هذين النعلين اللذين تلبسهما والس نعليّ هذين".

وكان ثمة كرسي بجوار جدار حجرة السجن خلف السجين نفسه، فدفعه كارتن بسرعة البرق، وأجلسه عليه، ووقف أمامه عاري القدمين.
"والآن البس هذين، أسرع".

"كارتن، ليس ثمة سبيل للهرب من هذا المكان، إن هذا لم يحدث قط من قبل، وإن محاولة الهرب من هذا المكان لهي الجنون بعينه".

"وهل طلبت إليك الهرب؟ إذا طلبت إليك أن تمر من هذا الباب فقل إنه هو الجنون، وابق في هذا المكان".

"اخلع تلك السترة والبس سترتي هذه".

وكان داريني أشبه بالطفل في يدي سديني، فقد كان سديني صاحب العزيمة والإرادة، أما داريني فكان مرتبگًا، وقلما كان يعرف أهو في يقظة أم في منام.

"ولكني لا أفهم هذا يا كارتن، يا عزيزي كارتن".

"لست أريد أن تفهم، إن هذا ما تطلبه زوجتك، وعليك أن تجيها إلى رجائها الأخير هذا".

"إنك لا تفعل خيرًا، وكل الذي أنت فاعله أن تضيف موتك إلى موتي، إن الهرب مستحيل".

"وهل طلبت إليك يا عزيزي داريني أن تمر من هذا الباب؟ إذا طلبت ذلك فلا تفعل. إن على المنضدة قلماً وورقًا، فهل يدك ثابتة إلى حد تستطيع معه الكتابة؟"

"لقد كانت كذلك قبل دخولك".

"ثبت يدك مرة أخرى واكتب ما أقول. أسرع يا صديقي. أسرع! وافعل ما أقول".

وضغط داريني بيده على رأسه وجلس أمام المنضدة، ووقف كارتن يطل عليه ويده من داخل ثيابه على صدره".

"اكتب ما أملكه عليك بالضبط".

"ولمن أوجه الخطاب؟"

"لغير إنسان، وليس عليك إلا أن تكتب ما أقول".

وقال كارتن: "اكتب هذا: أتذكرين... الكلمات التي تبادلناها من زمن طويل. ليس من طبعك أن تنسيها".

وكان كارتن يمسك شيئاً بيده، وكانت يده، وهو يتحدث تتحرك في بطاء إلى أسفل.

"هل فرغت من كتابته؟"

"نعم فرغت، وما هذا الذي بيدك! أسلاح؟"

"لا لست مسلحاً".

"وما هو إذن؟"

"ستعرفه بعد دقيقة؛ استمر في الكتابة: وأحمد الله أن قد جاء الوقت الذي أستطيع أن أحقق فيه قولي. وليس ثمة ما أندم عليه أو آسف له في فعلي هذا".

وتحركت يده إلى أسفل نحو وجه الكاتب، وهو ينطق بهذه الألفاظ وسقط القلم من بين أصابع دارني وتلفت حوله في حال غير مستقرة.

"ما هذه الرائحة؟"

"رائحة، إني لا أشم شيئاً، وليس شيء هنا، خذ قلمك وأتم الكتابة أسرع، أسرع!"

واخذ السجين القلم مرة أخرى، وبدا أنه يجد بعض الصعوبة في حصر ذهنه، ونظر إلى كارتن بعينين غائمتين، وكلنه أكب مرة أخرى على الورق".

وأعاد كارتن قوله: "ما أندم عليه وآسف له". وكانت يده تتحرك من جديد بخفة وسكون إلى أسفل، ونظر إلى القلم وشاهد أنه يخط على الورق علامات لا معنى لها.

ثم سقط القلم من يدر دارني وحاول أن يقف، ولكنه لم يكن في وسعه أن يسيطر على أطرافه، وسرعان ما أمسك به كارتن من وسطه بإحدى يديه وضغط قطعة القماش بيده الأخرى على أنفه وفمه. وقاوم دارني بضع دقائق الرجل الذي جاء ليضحى بحياته من أجله، ثم استلقى على الأرض، فاقد الوعي.

وسرعان ما لبس كارتن في هدوء الثياب التي خلعها السجين، ثم نادى بصوت منخفض: "تستطيع أن تدخل الآن. ادخل".

وظهر بارساد الجاسوس.

وقال كارتن: "أترى؟ هل تتعرض لخطر عظيم؟"

وركع كارتن بجوار صديقه، ووضع الورقة المكتوبة في داخل سترته
حيث يمكن العثور عليها..

وقال الجاسوس في قلق: "إن الخطر عليّ لن يكون عظيمًا يا مستر
كارتن إذا حافظت أنت على عهدك".

"لا تخشي، سأوفي بعهدي إلى آخر رمق من حياتي".

"ستوفي به حتمًا يا مستر كارتن إذا كان العدد صحيحًا. إن اثنين
وخمسين سيعدمون اليوم؛ فإذا كنت أنت في ثيابك هذه ستتم العدد
المطلوب فلن أخشى أنا شيئًا".

"لا تخف! سأمضي بعد وقت قصير إلى حيث لا أؤذيك أو أؤذي
أحدًا غيرك، سيكون الآخرون إن شاء الله بعيدين عن هذا المكان. والن
أطلب المعونة وانقلني إلى العربة".

وسأله الجاسوس: "أنقلك أنت؟"

"هو، بالطبع، انقل الذي بدلت نفسي به. أتستطيع أن تخرج من
الباب الذي أدخلتني منه؟"

"بالطبع"

"إني كنت ضعيفًا، خائر القوى، حين أدخلتني. وكان لقائي الأخير
أكثر مما أطبق. وقد حدثت مثل هذه الأمور من قبل، وليست هذه أول

مرة يغمى فيها على صديق، وهو يحاول أن يودع صديقه الوداع الأخير.
أليس كذلك؟ إن حياتك في يدك، فأسرع واطلب النجدة!"

"أنتقسم ألا تغدر بي؟"

"أيها الرجل، أيها الرجل! ألم أقسم بذلك قبل؟ فلم تضيع الوقت
الثمين الآن؟ خذه أنت بنفسك إلى الفناء الذي تعرفه. وضعه بنفسك في
العربة، وأره بنفسك إلى مستر لري، وقل له ألا يعطيه شيئاً إلا الهواء
الطلق، وقل لمستر لري أن يتذكر ما قلته له الليلة الماضية، وأن يتذكر
وعده هو، وأن يخرج بالعربة".

وخرج بارساد الجاسوس، وجلس كارتن على المنضدة، وأمسك
رأسه بيده، وعاد الجاسوس من فوره ومعه رجلان.

وقال أحد الرجلين وهو ينظر إلى الجسم المستلقي على الأرض:
"ما هذا؟ إن وداعه الأخير كان أكثر مما يطيق، أكان ذلك؟ ولم ترق له
فكرة تحية صاحبه للمقصلة؟"

ورفعوا الرجل المغمى عليه فيما بينهم، وحركوا الباب.

وقال الجاسوس بنغمة التحذير: "إن الوقت قصير يا إفريمند".

وأجاب كارتن: "أعرف ذلك حق المعرفة. أرجوك أن تعني بصديقي
وأن تتركني وحدي".

وقال بارساد: "تعاليا إذن يا صديقي الطيبين ولنتركه وشأنه".

وأغلق الباب، وأدير المفتاح في القفل، وترك كارتن وحده، وأنصت لعله يسمع صوتاً يدل على الفزع، ولكن شيئاً ما لم يحدث سوى أصوات السجن المألوفة، ولم يرتفع صراخ ولم يحدث هرج، وبدأ يتنفس وهو أكثر اطمئناناً، ولكنه ظل منصتاً حتى دقت الساعة الثانية.

ثم سمعت أصوات، أصوات فهم معناها، وكان مستعداً لها، وفتحت عدة أبواب، كل واحد منها بعد الآخر. ثم فتح بابه هو. واطل عليه سجان، وبيده ثبت أسماء، وقال له: "اتبعني يا إفريمند". وقام سدني، وسار وراءه حتى وصل إلى حجرة كبيرة مظلمة نوعاً ما، ومملوءة إلى نصفها بالناس جيء بهم لتوثق أيديهم. وكان بعضهم وقوفاً، وبعضهم جلوساً، بعضهم يبكون، وقليلون منهم يمشون في الحجرة قلقين، ولكن كثرتهم كانت صامتة، ساكنة مطرقة عيونها إلى الأرض، لا تتحول عنها قط.

ووقف سدني بجوار الجدار في ركن مظلم، ووقف عنده رجل وهو مار به كأنه يريد أن يحييه ثم سار في طريقه، وبعد لحظات قليلة قامت امرأة من المكان الذي كانت تجلس فيه وجاءت إليه لتحدثه. وكانت نحيلة الجسم في صورة البنت الصغيرة، ولها وجه حلو رفيع لا أثر للون فيه.

قالت وهي تلمسه بيدها الباردة: "يا مواطن إفريمند، أنا خياطة صغيرة مسكينة كنت معك في لافورس".

وتمتم قائلاً: "صحيح، وقد نسيت التهمة التي وجهت إليك".

"التامر، ولكن الله يعلم أي بريئة، ومن ذا الذي يفكر في التامر مع مخلوقة مسكينة ضعيفة مثلي؟"

وابتسمت وهي تتكلم ابتسامة حزينة أرسلت الدمع من عيني سدني.
"ولست أخشى الموت لأني لم أفعل ما أُؤخذ به، وإذا كانت
الجمهورية التي تعمل الشيء الكثير لخير الفقراء تفيد من موتي فأني راضية
بالموت. ولكن كيف يكون في موتي فائدة؟ وأنا المخلوقة الضعيفة
المسكينة!"

وملاً الأسى قلب سدني وهو ينظر إليها وينصت لها، وكانت هي
آخر إنسان يتحدث إليه في حياته.

"ولقد سمعت أنك أطلق سراحك يا مواطن إفريمند، وكنت أرجو أن
يكون ذلك صحيحًا".

"لقد كان، ولكنني قبض عليّ مرة أخرى".

"وإذا سمحوا لنا بأن نركب معًا يا مواطن إفريمند، فهل تسمح لي أن
أمسك بيدك؟ لست خائفة، ولكنني صغيرة وضعيفة، وهذا يبعث الشجاعة
في قلبي".

ولما رفعت عينيها الصابرتين إلى عينيه أبصر فيهما الشك المفاجئ ثم
الدهشة، فضغط على يديها اللتين أضناهما العمل والجوع ومسهما بشفتيه.

وهمست قائلة: "أتموت فداء له؟"

"صه! نعم وفداء لزوجته وابنته".

"آه، هل تسمح لي بأن أمسك بيدك أيها الغريب الشجاع؟"

"صه، نعم يا أختي العزيزة، إلى آخر رمق في الحياة".

الفصل الخامس والعشرون

آخر العهد بباريس

وكانت الظلال تتساقط على أبواب السجن، والظلال تساقط على أبواب المدينة، وكانت عربة خارجة من باريس تسير إلى الباب لتفتش.

"من ذا الذي يسير هناك؟ أوراقكم!"

وأعطيت الأوراق وقرئت.

"ألكسندر مانت طبيب فرنسي، أيهم هو؟"

"هو ذا، هو هذا الشيخ الضعيف المسكين."

"يلوح أن الطبيب ليس مالكا لقواه العقلية، لعل حمى الثورة كانت

أشد مما يطيق؟"

"أشد كثيرا مما يطيق."

"ها! عن كثيرين من الناس يقاسون الأمرين منها! لوسي ابنته

فرنسية، أي هؤلاء هي؟"

"هي هذه."

"لوسي زوجة إفريند، أليست هي؟"

"نعم هي".

"ها! إن إفريند على موعد في غير هذا المكان! ولوسي الصغيرة

ابنتها، إنجليزية. هذه هي؟"

"نعم".

"قبلني يا ابنة إفريند، لقد قبلت الآن مواطنًا صالحًا من أبناء

الجمهورية، وذلك حادث جديد في الأسرة! سديني كارتن محام إنجليزي، أين

هو؟"

"هو راقد هناك".

"هل أغمى عليه؟"

"نرجو أن يفيق في الهواء الطلق، لقد افترق توأ فراقًا محزنًا عن صديق

في طريقه إلى المقصلة".

"أذلك كل ما في الأمر؟ ليس هو بالشيء الكثير! وإن حوادث مثله

لتقع كثيرًا. جارفس لري، مصرفي، إنجليزي، من هو؟"

"أنا هو، وآخرهم بطبيعة الحال".

وكان جارفس لري هو الذي يجيب عن جميع الأسئلة وهو واقف بجوار باب العربة يتحدث إلى طائفة من الموظفين. وفتشوا العربة والأمتعة الموضوعة فوق سقفها على مهل.

"ها هي ذي أوراقكم يا جارفس لري ممضاة!"

"هل نسير في طريقنا يا مواطن؟"

"في وسعكم أن تسيروا، إلى الأمام. رحلة طيبة!"

وهكذا اجتازوا أول الأخطار.

وكان في العربة خوف وكان فيها بكاء، وكانت فيها أنفاس ثقيلة صادرة من الراكب الذي في ركنها.

وقالت لوسي: "ألا نستطيع الإسراع أكثر من هذا؟"

وأجابها مستر لري بقوله: "لو فعلنا لبدا كأننا هاربون، وليس ثمة أحد يتبعنا حتى الآن".

وسرعان ما خرجوا من المدينة إلى الريف، ومروا بالأكوخ مثنى وثلاث، واجتازوا طرقاً على جانبيها أشجار عارية من الأوراق وضياعاً وأبنية مخربة، وبدلوا الجياد، واخترقوا قرية، وصعدوا تلاً، ونزلوا عنه، وساروا في الأرض المنخفضة المبللة. ودوت صرخة على حين غفلة.

"أنتم يا من في العربة! تكلموا!"

وقال مستر لري وهو يطل من النافذة: "ماذا تريد؟"

"كم عددهم اليوم؟"

"لست أفهم قولك."

"كم عدد الداهيين إلى المقصلة اليوم؟"

"اثنان وخمسون".

"لقد قلتُ هذا، عدد طيب، وكان زميلي المواطن هذا يظنهم اثنين وأربعين، فهذه عشرة رؤوس فوق ذلك العدد! إني أحبها! أحب المقصلة!"

وأرخی الليل سدوله، وأخذ الراكب الذي في ركن العربة يفيق ويتكلم. "أطلوا، أطلوا، وانظروا هل يتبعنا أحد؟" ... وكانت الريح تهب بقوة من خلفهم، والسحب تسير في السماء من ورائهم، ولكنهم حتى هذه اللحظة لم يكن شيء غير هذه وتلك يتبعهم!

الفصل السادس والعشرون

ختام التطريز

كانت مدام دفارج تتحدث إلى صديقتها "الانتقام" وإلى جاك ٣ في كوخ قاطع الأخشاب حين كان الاثنان والخمسون رجلاً وامرأة يقضون آخر ساعات حياتهم على ظهر الأرض. وكان جاك ٣ عضواً في جماعة المحلفين. وجلس قاطع الأخشاب (وكان في يوم من الأيام معبد طرق) بعيداً عن غيره قليلاً، لا يتحدث إلا إذا بدأه أحد بالحديث.

وقال جاك ٣: "ولكن صديقنا دفارج جمهوري صميم من غير شك، أليس كذلك؟"

وصاحت الانتقام قائلة: "ليس في فرنسا أفضل منه".

وقالت مدام دفارج: "اسكتي يا انتقام الصغيرة. إن زوجي بلا شك جمهوري صميم ورجل شجاع، وقد استحق شكر الجمهورية، ولكن فيه نقطة ضعف واحدة وهي أنه آسف لما أصاب الطبيب".

وقال جاك ٣: "هذا ما يدعو إلى الأسف الشديد. إن الجمهوري الصميم يجب ألا يأسف لما يصيب أمثال أولئك الناس".

وقالت مدام دفارج: "إن هذا الطبيب لا يهتمني أمره مطلقاً، فليحتفظ برأسه أو يخسرها - فهذا وذاك لدي سيان، ولكن أسرة إفريمند يجب أن تهلك عن آخرها، ويجب أن تلحق الزوجة والطفلة بالأب".

وقال جاك ٣: "ما أجمل رأسها تحت المقصلة. لقد رأيت تحتها عيوناً زرقاً وشعرًا أشقر. وكانت العيون والشعر جميلة ساحرة حين رفعت أمام أعين الشعب".

وأطرقت مدام دفارج بعينيها واستغرقت في التفكير.

وقال جاك ٣ وقد أعجبته نغمة صوته: "وللطفلة أيضاً شعر ذهبي وعينانا زرقاوان. وقلما يرسل أطفال إلى المقصلة، وما أجمل منظرها هناك".

ورفعت مدام دفارج رأسها إذ كانت قد وصلت إلى قرار.

"في الحق أني فقدت ثقتي بزوجي، فلا أستطيع الاعتماد عليه في هذه المسألة، ولن أجرؤ على أن أفضي إليه بتفاصيل خطتي، وأخشى إن أنا تباطأت أن يحذرهم فيهربوا".

وصاح جاك ٣: "إن ذلك لن يكون، يجب ألا يهرب أحد، فليس عندنا والحالة كما هي الآن رؤوس كافية، إذ يجب أن نحصل على مائة منها في كل يوم على أقل تقدير".

وواصلت مدام دفارج حديثها قائلة: "وقصارى القول أن ليس لدى زوجي من الأسباب ما لديّ أنا لتتبع آثار هذه الأسرة حتى لا يبقى منها فرد واحد بين الأحياء، كما أنني ليس لديّ مثل ما لديه من الأسباب التي تجعله يشعر بالأسف لما يصيب الطبيب، ولذلك يجب عليّ أن أعمل بنفسى. تعال هنا أيها المواطن الصغير".

وكان قاطع الخشب كثير الاحترام لمدام دفارج، شديد الخوف منها، فتقدم نحوها ويده على قلنسوته الحمراء.

"من حيث تلك الإشارات التي كانت توجهها نحو المسجونين، أنت على استعداد لأن تشهد بما في هذا اليوم؟"

فصاح قائلاً: "نعم، بالتأكيد، لم لا؟ لقد كانت هناك في كل يوم مهما يكن الجو، من الساعة الثانية إلى الرابعة. وكانت الطفلة معها تارة، وليست معها تارة أخرى، لقد رأيتها بعيني هاتين".

وقال جاك ٣: "لحظة سرية بطبيعة الحال".

وسألته مدام دفارج: "وهل أنت واثق من سائر المحلفين؟"

"لك أن تثقي بهم أيتها المواطنة العزيزة، وفي وسعي أن أكون مسئولاً عنهم جميعاً".

وقالت مدام دفارج وهي تفكر: "والآن سأرى هل يسعني أن أبق على هذا الطبيب إكرامًا لزوجي؟ إني لا أشعر بشيء له أو عليه، فهل أستطيع أن أبقى عليه؟"

ولاحظ جاك ٣ قائلاً: "إن رأسه يزيد العدد بواحد، فالحق أننا لا نجد ما يكفي من الرؤوس، وأظن أن الإبقاء عليه يكون من الأمور التي يؤسف لها".

وواصلت حديثها قائلة: "وكان هو يشير معها حين رأيتهما، وليس في وسعي أن أذكرها دون أن أذكره. لا! فليصبه حظه، خيرًا كان أو شرًا، إذ ليس في وسعي أن أبقى عليه. وستذهب أنت في الساعة الثالثة لتشاهد الاثنين والخمسين تقطع رؤوسهم تحت المقصلة. وسأكون أنا هناك. وعليك أن تحضر معي بعد أن ينتهي كل شيء، وسنذهب إلى سانت أنطوان ونبليغ عنهم جميعًا".

وقال قاطع الخشب الصغير إن من دواعي فخره وسعادته أن يصطحب مدام دفارج. ونظرت إليه بفتور، وتجنب هو النظر إلى عينيها، كما يفعل الكلب الجبان، وعاد إلى مقعده.

وأخذت مدام دفارج من كان هناك غيره إلى قرب الباب، وأفضت إليهم بخططها.

"ستكون لوسي مانت في بيتها الآن في انتظار اللحظة التي يعلم فيها زوجها، وستكون حزينة باكية، وستكون حالتها العقلية مما يحملها على أن تنطق بألفاظ شديدة عن عدالة الجمهورية، وسيكون قلبها مليئاً بالعطف على أعدائها. وسأذهب الآن إليها!"

وقالت الانتقام: "ما أنبلك من امرأة، جمهورية صميمة! آه يا عزيزتي ثم قبلتها".

وقالت مدام دفارج وهي تضع في يدي الانتقام ما كانت تطرزه: "خذي أنت تطريزي وكوبي على استعداد به في مكاني المعتاد. واحتفظي لي بمقعدي المألوف. اذهبي الآن لأن الزحام سيكون شديداً".

وقالت الانتقام وهي تقبلها في خدها: "سأطيع أوامر رئيسي عن رضا وارتياح. ولن تتأخري؟"

"سأكون هناك قبل أن يبدأوا؟"

ونادتها الانتقام بعد أن انتقلت إلى الشارع: "كوبي هناك قبل أن تصل العربات. تأكدي من وصولك إلى هناك قبل أن تأتي العربات".

ولوحت مدام دفارج بيدها دلالة على أنها سمعت قولها، وأنها ستكون هناك في الوقت المناسب. ثم سارت رابطة الجأش في شوارع المدينة. ولم يكن بين نساء باريس جميعهن امرأة يخشى بأسها أكثر من مدام دفارج، فقد كانت ذات شخصية قوية غير هيابة، وكان لها من الجمال ما

يلفت الأنظار لصفاتها. وقد شبت وهي تحس إحساسًا عميقًا بما وقع عليها من ظلم، وتضمر في قلبها أشد البغض للنبلاء. وقد فقدت الآن ما عساه قد وجد في صدرها من عاطفة الرحمة. فلم يكن يهمها قد أن يموت الآن رجل بريء جزاء ما اقترفه غيره من آثام، وأن تتحمل زوجة وتيتم طفلة، بل إن هذا كله لم يكن يكفيها. وكانت تخبئ في طيات ثيابها الأمامية مسدسًا محشوءًا، وفي وسطها خنجرًا مسنونًا. واجتازت مدام دفارج بهذه الثياب شوارع المدينة بخط ثابتة إلى بيت أعدائها.

وفي هذه اللحظة عينها كانت عربة تبدأ رحلتها إلى الحجاز الشمالي. وكان في هذه العربة رجل إنجليزي شيخ، وأم شابة وابنتها، وشيخ فرنسي يبدو أن بعقله خبالًا، ورجل أصغر منه سنًا يرقد مغمى عليه.

وكان مستر لري قد ضايقه أمر الأنسة برس وجري كرنشر وما عساه أن يفعله لهما. فلم يكن يريد أن يثقل حمل العربة، فهي كلما خفف حملها كانت أسرع في سيرها. يضاف إلى هذا أنه كلما قل عدد الركاب قصر الوقت الذي يلزم للفحص عنهم عند الحواجز. ولما كانت كل لحظة من الوقت عظيمة القيمة لهم، وقد تكون هي الفيصل بين الحياة والموت، فقد قرر أن تسافر الأنسة برس هي وجري وحدهما في عربة أخف من عربتهم وأسرع منها. وكان عليهما أن يبدأ رحلتها بعد سائر الجماعة على أن يلحقا بهم بعد قليل، ثم يسبقاهم ليعد خيالًا جديدًا عند كل بلدة، وبهذه الطريقة يستطيعون أن يوفروا كثيرًا من الوقت الثمين.

وأبصرت الآنسة برس هي وجري العربة تبدأ سيرها، وحزرا من عساه أن يكون الرجل المغمى عليه الذي جاء به بارساد. وكان هذان الشخصان حتى الوقت الذي كانت فيه مدام دفارج تقترب من البيت، يتباحثان وهما في أشد حالات القلق فيما يجب أن يفعلاه.

فقالت الآنسة برس: "ألا تظن يا مستر كرنشر أنه يحسن بنا ألا نبدأ رحيلنا من هذا الفناء؟ فقد سافرت من هنا عربة من قبل، وإذا سافرت عربة أخرى فقد يثير هذا بعض الظنون".

فأجابها جري بقوله: "أظنك على حق يا آنسة، ومهما يكن من أمر فأبني على استعداد لأن أفعل ما تشيرين به".

"إني في حال من القلق لا أكاد أقوى فيها على التكفير. ولكن ما رأيك في أن تذهب أنت وتطلب أن يؤتى لنا بعربة في غير هذا المكان؟ سأكون أنا في انتظارك، وفي وسعك أن تأخذني".

"وأين أجدك؟"

"عند كنيسة نتردام. وليس يسعك أن تخطئ هذا المكان، وسأنتظر هناك فعجل بالذهاب، ولتكن هناك ومعك العربة في الساعة الثالثة".

ولم يكن جري يجب أن يترك الأنسة برس وحدها، وصرح لها بذلك فأجابته: "لا تفكر في نفسك، بل فكر في غيرك. أما أنا فسأكون في أمان تام، ولن يمضي نصف ساعة حتى نكون معاً في العربة".

ولم يكد جري يذهب حتى أخذت الأنسة برس تستعد للرحيل، فأتت بوعاء من الماء وأخذت تغسل وجهها لأن عينيها كانتا حمران متورمتين من البكاء منذ قليل. ولم تكن تريد أن تستلفت إليها الأنظار وهي تجتاز الشوارع.

وكانت وهي تغسل وجهها لا تنفك تنظر وراءها لتتأكد من أن الغرفة ليس فيها أحد غيرها، لأنها كانت تشعر بالوحدة وتخاف وجودها منفردة. فلما نظرت في تلك اللحظة خلفها صرخت صرخة عالية لأنها رأت شبحاً واقفاً في وسط الحجرة.

وسقط الإناء على الأرض وانكسر، وسال الماء على قدمي مدام دفارج.

ونظرت إليها مدام دفارج في برود وسألتها: "زوجة إفرميند، أين هي؟"

وأدركت الأنسة برس فجأة أن جميع الأبواب مفتوحة، فكان أول ما فعلته أن أغلقتها، ثم وقفت أمام الحجرة التي كانت تشغلها لوسي.

وراقبتها مدام دفارج وهي تفعل هذا، ثم نظرت إليها مغضبة حين فرغت من هذا العمل.

وردت الأنسة برس على نظراتها هذه بنظرات ثابتة، وكانت كلتاها امرأة ذات عزيمة بطريقة تختلف عن طريقة الأخرى. فأما المرأة الفرنسية فقوى البغض قلبها، وأما المرأة الإنجليزية فقد ملأ الحب وقتئذ قلبها بالشجاعة.

وقالت الأنسة برس بصوت هادئ: "إنك لن تغليبي على أمري وإن ظهرت كأنك زوجة الشيطان الرجيم نفسه. ذلك أني امرأة إنجليزية".

وكانت مدام دفارج تعرف حق المعرفة أن هذه المرأة خادمة أمينة للأسرة، كما كانت الأنسة برس تعرف أن المرأة الأخرى عدوة لها.

وقالت مدام دفارج: "إني ذاهبة في طريقي إلى مكان ما احتفظ لي فيه بمقعدتي وبتطريزي، وأريد أن أرى زوجة إفريمند".

فأجابها الأنسة برس قائلة: "إني أعرف سوء مقاصدك".

وكانت كلتاها تتكلم بلغتها ولا تفهم كلمة واحدة مما تقوله الأخرى، ولكن كلتاها كانت تفهم ما تريده الثانية.

وقالت مدام دفارج: "لن يفيدها اختفاؤها عني شيئاً، فإن الوطنيين الصالحين سيعرفون معنى هذا الاختفاء. دعيني أراها، اذهبي وخبريها أنني أريد أن أراها، أسمعين؟"

فأجابتها الأنسة برس بقولها: "إني لا أتلقى أوامر منك أيتها المرأة الأجنبية الآثمة؟"

فصاحت مدام دفارج قائلة: "أيتها المرأة الحمقاء الخنزيرة، إني اطلب أن أراها، فإما أن تبلغيني هذا، وإما أن تفسحي لي الطريق وتتركيني أذهب إليها بنفسى".

ونظرت كلتاهما إلى عيني الأخرى نظرة جد وثبات. وتقدمت مدام دفارج خطوة إلى الأمام.

وقالت الأنسة برس: "إني امرأة إنجليزية لا أبالي بما يحدث لي، وأنا أعرف أنني كلما طال احتجازي لك هنا قوي الأمل في نجاة أعز الناس عليّ. وإذا مسستني بإصبعك فلن أترك قبضة من هذا الشعر الأسود على رأسك".

وبلغ انفعال الأنسة برس واهتياجها أشدهما، وهي التي لم ترفع قط يدها لتلطم بما إنساناً ما، حتى فاضت الدموع من عينيها. وظنت مدام دفارج أن الدموع دليل على ضعفها.

فقالته وهي تفهقه: "ها، ها، أيها الشيء الحقير. أي شيء تستحقين؟ سأدعو أنا ذلك الطبيب، ثم رفعت صوتها ونادت: "أيها المواطن الطبيب! يا زوجة إفريند! فليجني إنسان عدا هذه الحمقاء التعسة، أجيبيوا المواطنة دفارج!"

ولكنها لم تسمع جوابًا، وبدت في عينيها نظرات الارتباب، وانتقلت مسرعة من باب إلى باب، وأطلت في كل حجرة، فوجدت الحجرات الثلاث خالية.

"إن هذه الحجرات كلها في غير نظام. لقد حزموا أمتعتهم وغادروا الدار. هيا افتحي الباب الذي خلفك! ودعيني أنظر في داخل تلك الحجرة".

فأجابته الآنسة برس وقد فهمت السؤال بوضوح يعادل فهم المرأة الأخرى الجواب: "لا، أبدًا".

وقالت مدام دفارج في نفسها: "إن كانوا قد سافروا فإن من المستطاع اقتفاء أثرهم وإعادتهم".

وقالت الآنسة برس في نفسها: "ولكن ما دمت غير واثقة فإنك لا تعرفين ما يجب أن تفعليه، ولن تكوني واثقة إذا كان في وسعي أن أمنعك من هذا. ومهما يكن من شيء فإنك لن تغادري هذا البيت ما دامت في قوة على منعك".

وقالت مدام دفارج: "لقد خضت القتال من بدايته، ولم يحل ببني وبينه حائل، وسأمزقك إرباً إن لم تتعدي عن هذا الباب".

وقالت الأنسة برس: "إنا وحدنا في أعلى الدار وليس من المحتمل أن يسمعنا إنسان، وكل دقيقة أبقىك فيها هنا تساوي مائة جنيه للوسي".

وهجمت مدام دفارج على الباب، وقبضت عليها الأنسة برس من وسطها وأمسكتها بقوة، ولم يجد مدام دفارج كفاحها وضرباتها. وقوى الحب الأنسة برس، فظلت ممسكة بها بل ورفعتها عن الأرض. وضربتها مدام دفارج ومزقت وجهها، وطأطأت الأنسة برس رأسها ولكنها ظلت ممسكة بها.

وسرعان ما أمسكت مدام دفارج عن الضرب وأخذت تبحث عن خنجرها. وقالت الأنسة برس من بين أسنانها: "إن الخنجر تحت ذراعي ولن تستليه، فأنا أقوى منك والحمد لله، ولن أرخي قبضتي عنك حتى - يغمى على إحدانا أو تموت".

ومدت مدام دفارج يدها إلى طيات ثيابها الأمامية، ونظرت إليها الأنسة برس وشاهدت ما كانت تخرجه، وصويت ضربة نحو المسدس. وشوهد بريق وسمع هديد، ووقف الأنسة برس وحدها - وقد كاد يعميها الدخان.

وزال الدخان، وكأنه حمل معه روح المرأة الشرسة التي كانت ملقاة على الأرض لا حياة فيها.

وابتعدت الأنسة برس عن الجثة أكثر ما تستطيع وهي خائفة مرتاعة، ونزلت تجري على الدرج تطلب المعونة. ولكنها ذكرت في الوقت المناسب مقدار ما ينطوي عليه هذا العمل من خطر عليها، فعادت إلى مكانها، وأرغمت نفسها على أن تمر بالشيء الذي كان ملقى على الأرض، وجمعت قبعتها وغيرها من المتاع الذي كانت في حاجة إليه، ثم غادرت الحجرة وأغلقتها وراءها، وجلست على الدرج بضع دقائق لتهدئ من روعها، ثم قامت وغادرت الدار مسرعة، وأسدت النقاب على وجهها لتخفي ما فيه من آثار وخدوش، وإلا لما استطاعت أن تسير في الشوارع من غير أن يلاحظها الناس وربما منعوها من المسير.

ومشت في الشوارع مسرعة وعبرت النهر ووصلت كنيسة نتردام، وانتظرت عندها دقائق قليلة حتى وقعت عينها على المنظر الحبيب، منظر العربة وجري يظل من نافذتها. وقبل أن تقف العربة كان بابها قد فتح، وكانت هي تحاول أن تركب فيها. وتنهدت تنهد من نجا من الهلاك، واستقلت على مقعدها إلى جانب جري وسألته: "هل في الشارع ضجيج؟"

وأجابها كرنشر وقد بدت عيه الدهشة من سؤالها ومن منظرها: "فيه الضجيج المؤلف".

وقالت الأنسة برس: "إني لا أسمعك، ماذا قلت؟"

وأخذ يعيد قوله دون فائدة فاكتفى بأن أوماً برأسه. وأعدت عليه في وقت آخر هذا السؤال نفسه، فأجابها هو أيضاً بأن أوماً برأسه.

فسألته قائلة: "إني لا أسمع شيئاً".

وقال جري في نفسه: "ترى ماذا دهاها؟ وكيف أصابها الصمم في نصف ساعة؟"

وقالت الآنسة برس: "أحس كأن قد حدث وميض وهديد، وسيكون هذا الهديد آخر ما أسمعه في حياتي".

وقال جري: "اسمعي، إني أستطيع سماع صوت هذه العربات الرهيبة، ألا تسمعين؟"

وتبينت الآنسة برس أنه يتحدث إليها.

فقالت: "إني لا أستطيع سماع شيء قط".

فقال جري: "حسن، إن كنت لا تستطيعين سماع ما تحدثه تلك العربات التي هي الآن في آخر رحلتها، فإني أظن أنك لن تسمعي شيئاً غيرها في هذا العالم".

والحق أنها لم تسمع بعد شيئاً فقد أصابها الصمم الكامل.

الفصل السابع والعشرون

المقصلة

كانت عربات الموت تسير على مهل في شوارع باريس، تحمل ست منها قربان اليوم إلى المقصلة، وعجلاتها تدور كأنها تشق طريقها شقاً بين الناس في شوارع المدينة، ولكن أصحاب البيوت قد اعتادوا هذا المنظر حتى أتى أن كثيراً من النوافذ خلت من الناس، وفي البعض الآخر لم تقف اليد عن العمل حين كانت العينان تنظران إلى الوجوه التي في العربات.

أما راكبو العربات فقد كان بعضهم ينظروا إلى جانبي آخر طريق يجتازونه بعيون هادئة عديمة اللامبالاة، وبعضهم غلبهم اليأس الصامت فنكسوا رؤوسهم، وذكر بعضهم كيف تبدو صورهم لغيرهم فألقوا على الجماهير نظرات الكبرياء والازدراء.

وكان على جانبي العربات حرس من الفرسان، وكثيراً ما كانت الوجوه تتجه إليهم حين كان الناس في الشوارع يسألون عن أسماء المسجونين.

ووقف بارساد الجاسوس على سلم كنيسة ينتظر قدوم العربات، ونظر إلى العربة الأولى وقال: "ليس فيها"، ثم نظر إلى الثانية وقال: "ليس فيها"، ثم أبرقت أساير وجهه حين نظر إلى الثالثة.

وقال رجل من خلفه: "أيهم إفرمند؟"

"ذاك الذي في خلفهم".

"الذي يضع يده في يد البنت؟"

"نعم".

وصاح الرجل: "ليسقط إفرمند! إلى المقصلة!"

ورجاه الجاسوس في وجل: "صه، صه!"

"ولم لا يا مواطن؟"

"إنه ذاهب ليؤدي الثمن، وسيؤديه بعد خمس دقائق، فدعه يؤده في

سلام".

ولكن الرجل ظل يصيح: "ليسقط إفرمند!", واتجه وجه إفرمند لحظة

ورأى الجاسوس، ثم سار في طريقه.

ودقت الساعة الثالثة، وجلس أمام المقصلة عدد من النساء

منهمكات في التطريز، ووقفت الانتقام على أحد الكراسي تتلفت حولها

باحثة عن صديقتها.

وصاحت قائلة: "تيريز! أيكم رآها؟ تيريز دفارج!"

وقالت إحدى النساء: "إنها لم يفتها هذا المنظر من قل".

وقالت الانتقام: "لا، ولن يفوتها الآن. تيريز!"

وأشارت عليها المرأة قائلة: "ارفعي صوتك".

نعم يا انتقام ارفعي صوتك ثم ارفعيه! ولكنها لن تسمعك قط،
ولترسلي نساء أخريات ليبحثن عنها، ولكنهن لن يعثرن عليها.

وقالت الانتقام: "يا لسوء الحظ! سيعدم إفريند بعد قليل، وليست
هي هنا، ها هو ذا تطريزها في يدي، وكرسيها الخالي معه لها. إني أصرخ من
خبية الأمل!"

وأخذت العربات تفرغ حملها، وبدأت المقصلة عملها، وسمع هديد،
ورفع رأس إلى أعلى، وأحصت النساء المطرقات "واحدًا"، ثم سمع هديد
آخر وأحصت النساء "اثنين!"

ونزل إفريند من عربته، وأنزلت منها صانعة الملابس من بعده، وكان
لا يزال ممسكًا بيدها وهي صابرة، وأنزلها وظهرها مقابل لآلة المخطمة التي
كانت ترتفع وتسقط في غير انقطاع، ونظرت إلى وجهه وشكرت له حسن
صنيعه:

"لولاك أيها الغريب العزيز لما كنت هادئة هذا الهدوء، فانا بطبيعتي
ضعيفة القلب، وأنا مخلوقة ضعيفة مسكينة، وأظن إن الله قد بعثك إليّ".

وقال سدني كارتن: "أو بعثك إليّ. أديمي النظر إليّ يا ابنتي العزيزة ولا
تفكري في شيء آخر".

"إني لا أبالي بشيء ما دمت ممسكة بيدك، ولن أبالي بشيء حين
تركها إذا هم عجلوا".

"سيعجلون فلا تخافي".

وقبلته وقبلها وبارك كلاهما الآخر في جد ووقار، ولم ترتجف اليد
الصغيرة حين أرخاها، ولم يُر في وجه صاحبته شيء أسوأ من الصبر الجميل
يلتصع فيه. ثم جاء دورها في قلبه. وأحصت النساء المطرقات "اثنتين
وعشرين!"

وغابت جلية الأصوات المتعددة، والوجوه المرفوعة، ووقع الأقدام
الكثيرة في زحام الجماهير، غابت كلها أسرع من وميض البرق: "ثلاثة
وعشرون!"

وقالوا عنه في المدينة في تلك الليلة إن وجهه كان أهدأ وجه شاهده
الناس في ذلك المكان.

ولو أن كارتن نطق بما يجول في خاطره لقال:

"إني أرى بارساد، وكلاي، والقاضي، وصفوفاً طويلة من الرجال
القساة، تقطع المقصلة رؤوسهم كلهم قبل أن تفرغ من عملها الحاضر.
وأرى مدينة جميلة قائمة في هذا المكان الرهيب، وأرى هذا الشر يزول
بالتدريج".

"وأرى الذين أضحى بحياتي من اجلهم يحيون حياة مطمئنة نافعة سعيدة في إنجلترا التي لن أراها بعد. وأرى لوسي وعلى صدرها ولد يسمى باسمي، وأرى أباهما شيخًا مقوس الظهر ولكنه صحيح الجسم ناعم البال، وأرى لوسي امرأة عجوزًا تبكي عليّ كلما تذكرت هذا اليوم، وأراها هي وزوجها حين ينصرم أحدهما يرفدان جنبًا إلى جنب في مستقرهما الأخير، وأعرف أن ليس لأحدهما في قلب الثاني مكانة أرفع مما لي في قلبيهما جميعًا.

"وأرى الطفل الذي تضمه إلى صدرها، والذي يحمل اسمي، وقد كبر وغدا رجلاً يشق في الحياة الطريق الذي كنت أشقه أنا، وأراه يشقه بجدارة ترفع من شأن اسمي بما يُلقني عليه اسمه من سناء. وأراه يجيء بطفل ذي شعر ذهبي إلى هذا المكان - وأراه يقص على الطفل قصتي في نعمة رقيقة.

"إن الذي أفعله الآن خير ألف مرة من كل ما فعلته من قبل، وإن الراحة التي أنا مقبل عليها لخير ألف مرة من كل ما عرفته منها قبل".

الفهرس

أشخاص الرواية	٥
الفصل الأول : حانة مسيو دفارج	٧
الفصل الثاني: صانع الأحذية	١٥
الفصل الثالث: المحاكمة	٢١
الفصل الرابع: سدني كارتن	٣٢
الفصل الخامس: الدكتور مانت في لندن	٣٩
الفصل السادس: حادث باريس	٤٥
الفصل السابع: دارني وعمه الموكيز	٥٢
الفصل الثامن: دارني يتحدث عن الحب	٥٧
الفصل التاسع: وكارتن يعمل نفس العمل	٦٤
الفصل العاشر: معبد الطرق	٧٣
الفصل الحادي عشر: الجاسوس	٨٣
الفصل الثاني عشر: فرحة وترحة	٩٠
الفصل الثالث عشر: ثورة	١٠٠
الفصل الرابع عشر: خاتمة القصر	١٠٧
الفصل الخامس عشر: العمل في باريس	١١٥
الفصل السادس عشر: دارني يعود إلى فرنسا	١٢٤
الفصل السابع عشر: مستر لوري في باريس	١٣٦
الفصل الثامن عشر: محاكمة دارني	١٤٥

١٥٨.....	الفصل التاسع عشر: دقة على الباب
١٦٢.....	الفصل العشرون: الأنسة برس تجد أخاها
١٧٧.....	الفصل الحادي والعشرون: سدني كارتن يضع خططه
١٨٥.....	الفصل الثاني والعشرون: قصة الطبيب
١٩٢.....	الفصل الثالث والعشرون: مستر لري يعد
٢٠١.....	الفصل الرابع والعشرون: سدني كارتن يملي رسالة
٢١٣.....	الفصل الخامس والعشرون: آخر العهد بباريس
٢١٧.....	الفصل السادس والعشرون: ختام التطريز
٢٣١.....	الفصل السابع والعشرون: المقصلة